حديث القرآن الكريم عن لسانه العربي المبين

دراسة بلاغية تحليلية

إعداد

الأستاذ الدكتور

رضا السعيد فايد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بإيتاي البارود

١٤٤٤هـ / ٢٠٢٢م

حديث القرآن الكريم عن لسانه العربي المبين.
دراسة بلاغية تحليلية

رضا السعيد فايد

قسم: البلاغة والنقد كلية: كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
جامعة: الأزهر الشريف المدينة: إيتاي البارود الدولة: مصر
البريد الإلكتروني: redazayed.419@azhar.edu.eg

ملخص البحث :

هذا البحث يهدف إلى بيان البلاغة القرآنية والأسرار الإعجازية في الآيات التي تحدثت عن عربية القرآن الكريم فقد أكد النظم القرآني على وصف القرآن الكريم بكونه عربيا في أكثر من آية حيث جاء الوصف بـ(عربي) للقرآن الكريم ست مرات ، وللسان ثلاث مرات، وللحكم مرة واحدة ، ونفي عنه العجمة في آية واحدة ، بل وأقسم – سبحانه – في مطلع سورة الزخرف بالكتاب على عربية الكتاب ، وفي ذلك تشريف وتعظيم لهذا اللسان العربي الأمر الذي يدعو المسلمين أجمعين عربا وغير عرب إلى الاهتمام بهذا اللسان العربي والمحافظة عليه والذود عنه وإنفاق الأعمار والأموال في حراسته ، وانطلق البحث ليبين وجوه دلالة هذا الوصف كاشفا في الوقت ذاته عن جمال المتشابه النظمي بين الآيات مع قراءة الآيات قراءة واعية مراعية الآيات في سياقيها النزولي والمصحفي .

الكلمات المفتاحية : القرآن/ اللسان /البلاغة / عربيا .

Qur’anic rhetoric and the miraculous secrets in its verses

Researcher

Reda Al , Said Fayed

Faculty / Faculty of Arabic Language Branch of Al-Azhar University in Itai Al Baroud, University / Al-Azhar, City / Itai Al Baroud, State / Egypt

redazayed.419@azhar.edu.eg/ E-mail

Abstract:

This research aims to clarify the Qur’anic rhetoric and the miraculous secrets in the verses that talked about the Arabic of the Holy Qur’an. The foreignness of the Quran was denied in one verse, where Allah ,Glory be to Him, swore at the beginning of Surat Al-Zukhruf on this principle the this book is Arabic, and in that there is honor and glorification for this Arabic tongue, which calls upon all Muslims, Arabs and non-Arabs, to pay attention to this Arabic tongue to preserve it and defend it and spend lives and money in protecting this, and the research set out to show the aspects of the significance of this description, revealing at the same time the beauty of the systemic similarities between the verses with the conscious reading of the verses taking into account the verses in .their downward and scriptural contexts

key words: The Qur'an / tongue / rhetoric / Arabic.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، أنزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بن عبدالله ، لسان الصدق الفصيح الذي أحاط بالعربية لفظا ومعنى وتركيبا ونظما ، فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه الكرام وعلى كل من سار على هديه واستن بسنته إلى يوم الدين .

وبعد:

فالقرآن الكريم كلام الله المبارك الذي أنزله رب العالمين بلسان عربي مبين في كل كلماته وأساليبه وطرائق نظمه، بل وأكد النظم القرآني على وصف القرآن الكريم بكونه عربيا في أكثر من آية حيث جاء الوصف بـ(عربي) للقرآن الكريم ست مرات، وللسان ثلاث مرات، وللحكم مرة واحدة، ونفي عنه العجمة في آية واحدة، بل وأقسم – سبحانه – في مطلع الزخرف بالكتاب على عربية الكتاب، وفي ذلك تشريف وتعظيم لهذا اللسان العربي، و يدل على عظم هذه اللغة وكمالها وجمالها، وكيف لا تكون عظيمة وهي لسان القرآن الكريم ولسان أكرم مخلوق عرفته الدنيا كلها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولسان أهل الجنة ولسان كل مؤمن ينطق الشهادتين ؟! الأمر الذي يدعو المسلمين أجمعين عربا وغير عرب إلى الاهتمام بهذا اللسان العربي والمحافظة عليه والذود عنه وإنفاق الأعمار والأموال في حراسته، وأقول: عربا وغير عرب؛ لأن القرآن الكريم لم ينزل للعرب بل نزل بلسان العرب لكل البشر ؛ لتهيمن هذه اللغة ويتسع مداها ويقوى أثرها وينتشر، وأغلب من خدموا هذا اللسان وأسسوا علومه لم يكونوا قرشيين ولا من الجزيرة العربية كلها، وتاريخ نشأة العلوم شاهد وقاطع بذلك، فأردت أن ألفت إلى حق هذا اللسان العربي علينا خاصة في هذا العصر الذي وصلت فيه اللغة إلى حال يغيظ الصديق ويسر العدا فكان هذا البحث:

حديث القرآن الكريم عن لسانه العربي المبين .دراسة بلاغية تحليلية .

فأقف مع الآيات التي تحدثت عن لسان هذا الكتاب المبين مبينا البلاغة القرآنية والأسرار الإعجازية في هذه الآيات مع الكشف عن جمال المتشابه النظمي بين الآيات وقراءة الآيات قراءة واعية مراعية الآيات في سياقيها : النزولي و المصحفي . وقد جاء هذا البحث في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة:

التمهيد: وفيه : أولا : ثبت بكافة الآيات محل الدراسة .

ثانيا: كلمة (عربي) بين الدلالة المعجمية، والدلالة على اللسان العربي.

ثالثا: دلالات التأكيد على عربية القرآن الكريم .

رابعا: التناسب بين هذه الآيات وسورة الفاتحة.

خامسا: التناسب بين هذه الآيات والسياق النزولي .

المبحث الأول: وصف القرآن الكريم بكونه عربيا في ستة مواضع .

المبحث الثاني: التعبير عن لغة القرآن الكريم باللسان ووصفه بكونه عربيا في ثلاثة مواضع.

المبحث الثالث: التعبير عن القرآن الكريم بالحُكم ووصفه بكونه عربيا في موضع واحد.

المبحث الرابع: نفي العجمة عن القرآن الكريم في موضع واحد.

ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج وثبت المصادر والمراجع وفهرست الموضوعات **والله أسأل التوفيق والسداد**

د. رضا السعيد فايد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

تمهيد :

أولا: ثبت بالآيات محل الدراسة على ترتيب المصحف:

١- { الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢} سورة يوسف مكية

٢- { وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧} الرعد: مدنية .

٣- { وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ ١٠٣} النحل: مكية .

٤- {وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ١١٣} طه: مكية.

٥- {وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥} الشعراء: مكية.

٦- {وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨} الزمر: مكية .

٧- {حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣} فصلت: مكية .

٨- {وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ} فصلت : ٤٤

٩- {وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧} الشورى: مكية .

١٠- {حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣} الزخرف: مكية .

١١- {وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢} الأحقاف: مكية.

ثانيا: كلمة (عربي) بين الدلالة المعجمية والدلالة على اللسان العربي:

لفظ (عربي) الالتقاء فيه ظاهر واضح بين الدلالة المعجمية والدلالة على جنس العرب فالعين والراء والباء أصل يدل على معان :

١- شدة الحركة وكثرتها يقولون : نهر عَرِب: غَمْر، وبئر عَرِبة: كثير: الماء. العَرَبة محركة : النهر: الشديد الجَرْي . والعَرَب: النشاط والأَرَن. وعَرِب عرابة: نَشِط.

٢- الإفصاح والبيان والتصريح بما في النفس دون تهيب أو عجز جاء في الحديث "الثَّيِّب تعرب عن نفْسها"(١). أي تُفْصِح. وأَعْرِبْ عما في ضميرك أي أَبِنْ. وتَعرَّب واستَعْرَب: أَفْصَح. وأَعْرَب الأغتم وعَرُب لسانه بالضم: عُروبة أي صار عربيًّا. وعرّبت له الكلام تعريبًا وأعربت له إعرابًا: بينته له حتى لا يكون فيه حضرمة . وعرّب عليه: قبّح قوله وفِعله "أي نَقَدَه صراحةً دون مواربة، وما بالدّار عَرِيبٌ. أي: أحدٌ يُعْرِبُ عن نفسه، وامرأةٌ عَرُوبَةٌ: مُعْرِبَةٌ بحالها عن عفّتها ومحبّة زوجها، وجمعها: عُرُبٌ. قال تعالى: ﴿عُرُباً أَتْراباً﴾ [الواقعة : ٣٧]

(١) جزء من حديث وتمامه : "الثَّيِّبُ تُعْرِبُ عَنْ نَفْسِهَا، وَالْبِكْرُ رِضَاهَا صَمْتُهَا" مسند أحمد ج٢٩ ص ٢٦٠ رقم ١٧٧٢٢ ت. الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرين . مؤسسة الرسالة ط.الأولى. ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

وأَعرب بحُجَّته: أَفصح بها ولم يَتَّق أَحدا، وأعرب الرّجلُ: وُلد له وَلَدٌ عربيٌّ، وإنما سمّى الإعراب إعراباً لتبيينه وإيضاحه ، والعربيُّ إذا نُسِبَ إليه قيل: عربيٌّ فيكون لفظه كلفظ المنسوب إليه. وخير النساء اللَّعُوب العَرُوب. وقد تعرّبت لزوجها: تغزَّلت له وتحبَّبت إليه.

٣- فساد في جسم أو عضو، مَنْ عَرِبَ الجُرْحُ إذا فَسَدَ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ:

أَن رَجُلًا أَتاه فَقَالَ: إِنَّ ابْنَ أَخي عَرِبَ بَطنُه أَي فَسَد، فَقَالَ: اسْقِهِ عَسَلًا[١] وَقَالَ شَمِرٌ: التَّعْرِيبُ أَن يَتَكلم الرجُلُ بِالْكَلِمَةِ، فيُفْحِشَ فِيهَا، أَوْ يُخْطِئَ، فَيَقُولَ لَهُ الآخرُ: لَيْسَ كَذَا، وَلَكِنَّهُ كَذَا لِلَّذِي هُوَ أَصوبُ. قَالَ: والتَّعريب مثلُ الإِعْراب مِنَ الفُحْش فِي الْكَلَامِ. وَفِي حَدِيثِ بعضِهم: مَا أُوتِيَ أَحدٌ مِنْ مُعَارَبةِ النِّسَاءِ مَا أُوتِيتُه أَنا، كأَنه أَراد أَسباب الْجِمَاعِ ومُقَدَّماتِه. وعَرِبَ الرجلُ عَرَباً، فَهُوَ عَرِبٌ: اتَّخَمَ. وعَرِبَتْ مَعِدَتُه، بِالْكَسْرِ، عَرَباً: فسَدَتْ، وَقِيلَ: فَسَدَتْ مِمَّا يَحْمِلُ عَلَيْهَا، مِثْلُ ذَرِبَتْ ذرَباً، فَهِيَ عَرِبَةٌ وذَرِبةٌ. وعَرِبَ الجُرْحُ عَرَباً، وحَبِطَ حَبطاً: بَقِيَ فِيهِ أَثرٌ بَعْدَ البُرْءِ، ونُكْسٌ وغُفْرٌ. وعَرِبَ السَّنامُ عَرَباً إِذا وَرِمَ وتَقَيَّح[٢].

والعُرْبُ والعَرَبُ: جِيلٌ مِنَ النَّاسِ مَعْرُوفٌ، خِلافُ العَجَم، وَهُمَا واحدٌ، مِثْلُ العُجُم والعَجَم،. والعَرَبِيَّةُ: هِيَ هَذِهِ اللُّغَةُ. واخْتَلَفَ الناسُ فِي العَرَبِ لمَ سُمُّوا عَرَباً

---

(١) صحيح مسلم . ج٤ ص ١٧٣٧.رقم ٢٢١٧.ت . أ / محمد فؤاد عبد الباقي ط .دار إحياء التراث العربي – بيروت . بدون .

(٢) ينظر في هذه المعاني :. مقاييس اللغة . ابن فارس .ج٤ ص٢٤٣ ت . الشيخ /عبد السَّلام محمد هَارُون .اتحاد الكتاب العرب ط .١٤٢٣ هـ /٢٠٠٢م. والمفردات في غريب القرآن . الراغب الأصفهاني . ص٥٥٦ ت أ/ صفوان عدنان الداودي . دار القلم . الدار بيروت ط . الأولى – ١٤١٢ هـ..و لسان العرب (عرب). دار صادر بيروت ط. الأولى . وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . الفيروزأبادي .ج٤ ص ٣٨.ت . الشيخ / محمد علي النجار. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة. ط . ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م .

فَقَالَ بعضُهم: أَوَّلُ مَنْ أَنطق اللهُ لسانَه بِلُغَةِ الْعَرَبِ يَعْرُبُ بنْ قَحْطانَ، وَهُوَ أَبو اليَمن كُلِّهِمْ، وهمْ العَرَبُ الْعَارِبَةُ، ونَشأَ إِسْمَاعِيلُ بنُ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مَعَهُمْ فتكَلَّم بِلِسَانِهِمْ، فَهُوَ وأَولاده: العَرَبُ المُستَعربة، وَقِيلَ: إِن أَولاد إسماعيل نَشَؤُوا بعَرَبَة، وَهِيَ مِنْ تِهامة، فنُسِبُوا إِلى بَلَدِهم. وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ، ﷺ، أَنه قَالَ: خمسةُ أَنبياءَ مِنَ العَرب، وَهُمْ: مُحَمَّدٌ، وَإِسْمَاعِيلُ، وَشُعَيْبٌ، وَصَالِحٌ، وَهُودٌ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لسانَ الْعَرَبِ قَدِيمٌ. وَهَؤُلَاءِ الأَنبياء كُلُّهُمْ كَانُوا يَسْكُنُونَ بلادَ العَرَب، فَكَانَ شُعَيْبٌ وقومُه بأَرْضِ مَدْيَنَ، وَكَانَ صَالِحٌ وقومُه بأَرْضِ ثَمُودَ يَنْزِلُونَ بِنَاحِيَةِ الحِجْر، وَكَانَ هُودٌ وقومُه عادٌ يَنْزِلُونَ الأَحْقافَ مِنْ رِمالِ اليَمن، وَكَانُوا أَهل عَمَدٍ، وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَالنَّبِيُّ المصطفَى مُحَمَّدٌ، صَلَّى اللهُ عليهم وَسَلَّمَ، مِنْ سُكَّانِ الحَرم. وكلُّ مَن سَكَنَ بلادَ الْعَرَبِ وجَزِيرَتَها، ونَطَقَ بلسانِ أَهلها، فَهُمْ عَرَبٌ يَمَنُهم ومَعَدُّهم(١). والبحث لا ينشغل ببيان سبب التسمية وإنما ببيان الصلة الرابطة بين معاني هذا الجذر (عرب) وبين دلالتها على هذا اللسان المنسوب إلى العرب، ونستطيع القول إن المعنى المحوري لهذا اللفظ (عرب) راجع إلى الإفصاح والإبانة والنشاط والحدة الذاتية والانطلاق كانطلاق ماء البئر، وكذلك ماء النهر الشديد الجري، والنشاط والأَرَن يكون من قوة ذاتية ويَبْرُز وَثْبا وخِفَّة وجَرْيًا، وفسادُ المعدة انطلاق لما هو متجمع فيها فلا تهضم الطعام ولا تمسكه، فالعَرَب سُمُّوا بذلك لما فيهم من الحدّة الذاتية متمثلة في النشاط والحركة المتسيبة تنقلًا في الصحراء المكشوفة طلبًا للكلأ، ومتمثلة أيضًا في العاطفية والانفعالية وحرارة الدم الشائعة فيهم، وأخيرًا في قدرتهم على التعبير عما في نفوسهم من دقائق أي في الإعراب أي: الإفصاح كما قيل"(٢).

(١) لسان العرب (عرب) .

(٢) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم. د/ محمد حسن جبل .ج٣ ص ١٤٣٩. مكتبة الآداب – القاهرة ط . الأولى٢٠١٠ م.

ولذلك فالعربية المنسوبة إلى العرب هي لغة الإبانة والإفصاح وهي لغة حية ثرية نشطة فهي تأخذ صفات من نسبت إليه ولذلك يروى عَنْ أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، أَنه قَالَ: قريشٌ هُمْ أَوْسَطُ العَرَبِ فِي العَرب دَارًا، وأَحْسَنُه جِواراً، وأَعْرَبه أَلسِنةً، وَقَالَ قتادةُ: كَانَتْ قُرَيْشٌ تَجْتَبي، أَي تَختار، أَفضل لغاتِ العَرب، حَتَّى صَارَ أَفضلَ لغاتِها لغَتُها، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِهَا. قَالَ الأَزهري: وجعلَ اللَّه، عَزَّ وَجَلَّ، القرآنَ المُنزَلَ عَلَى النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ مُحَمَّدٍ، ﷺ، عَرَبيّاً، لِأنه نسَبه إِلَى العَرب الَّذِينَ أَنزله بِلِسَانِهِمْ، وَهُمُ النَّبِيُّ وَالْمُهَاجِرُونَ والأَنصار الَّذِينَ صيغَة لِسَانِهِمْ لغةُ الْعَرَبِ، فِي بَادِيَتِهَا وَقُرَاهَا الْعَرَبِيَّةُ، وجعَل النبيَّ، ﷺ، عَربيّاً لأَنه مِنْ صَرِيحِ الْعَرَبِ(١).

فلسان العرب الذي نزل به القرآن الكريم أعرب وأفصح وأجود الألسنة ولذلك كانت هذه اللغة وعاء لكتاب الله – عزوجل – .

ثالثا: دلالات التأكيد على عربية القرآن الكريم:

السؤال الذي قذف في ذهني وتردد كثيرا بين جنبات نفسي: إذا كان القرآن الكريم عربيا في حروفه وألفاظه وتراكيبه فما الحاجة إلى النص على تحديد لغته والتأكيد على عربية هذا اللسان الذي نزل به القرآن الكريم بل والقسم بالكتاب المبين على عربية القرآن الكريم؟(٢).

أقول: إن الشافعي – رضي الله عنه – أبان عن أهمية هذا الوصف (عربي) في كتابه الرسالة فقال : "وأولى الناس بالفضل باللسان من لسانه لسان النبي ولا يجوز والله أعلم أن يكون أهل لسانه أتباعا لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد

(١) ينظر: لسان العرب. (عرب) .

(٢) كما جاء في مطلع سورة الزخرف : (حمٓ (١) وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ)(٣)

بل كل لسان تبع للسانه وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه "[١] ليخلص الإمام إلى هذه النتيجة الحتمية" فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك"[٢].

والشاطبي في باب الاجتهاد يقسم درجات علماء الشريعة على حسب درجاتهم في معرفة اللغة العربية، يقول الشاطبي: "فَإِذَا فَرَضْنَا مُبْتَدِئًا فِي فَهْمِ الْعَرَبِيَّةِ فَهُوَ مُبْتَدِئٌ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ، أَوْ مُتَوَسِّطًا؛ فَهُوَ مُتَوَسِّطٌ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ وَالْمُتَوَسِّطُ لَمْ يَبْلُغْ دَرَجَةَ النِّهَايَةِ، فَإِنِ انْتَهَى إِلَى دَرَجَةِ الْغَايَةِ فِي الْعَرَبِيَّةِ كَانَ كَذَلِكَ فِي الشَّرِيعَةِ؛ فَكَانَ فَهْمُهُ فِيهَا حُجَّةً كَمَا كَانَ فَهْمُ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْفُصَحَاءِ الَّذِينَ فَهِمُوا الْقُرْآنَ حُجَّةً، فَمَنْ لَمْ يَبْلُغْ شَأْوَهُمْ؛ فَقَدْ نَقَصَهُ مِنْ فَهْمِ الشَّرِيعَةِ بِمِقْدَارِ التَّقْصِيرِ عَنْهُمْ، وَكُلُّ مَنْ قَصُرَ فَهْمُهُ لَمْ يُعَدَّ حُجَّةً، وَلَا كَانَ قَوْلُهُ فِيهَا مَقْبُولًا"[٣].

إذن فاللغة العربية بها حياة هذا الدين وبقدر العلم بها يكون العلم بأصول هذا الدين، ولذلك أصبح تعلم اللغة العربية والوقوف على أسرارها والإحاطة بكل علومها ضربا من ضروب التعبد الحق لله رب العالمين، وكان النص على قدسية هذه اللغة لأنها السبيل الأوحد إلى فهم الكتاب والتدبر فيه، لتمكينه في النفوس والقلوب والعقول ثم العمل به .

<u>والقرآن الكريم عربي</u> فالله – عزوجل– لم يذكر لغة أي كتاب سماوي في القرآن الكريم إلا لغة القرآن الكريم سموا و تعظيما وتكريما وصيانة لهذا اللسان العربي؛ ولذلك لم يبق كتاب سماوي على لغته التي نزل بها؛ لأن الله – عزوجل – تولى حفظها حفظا للقرآن الكريم؛ ولذلك كانت اللغة العربية هي أصل اللغات وهي

---

(١) الرسالة . الشافعي ص ٤٦ وما بعدها .ت . الشيخ/ أحمد محمد شاكر .دار الكتب العلمية.بدون .

(٢) السابق ص ٤٨.

(٣) الموافقات . الشاطبي ج٥ ص ٥٣. . دار ابن عفان ط . الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

أجمل اللغات وأثراها لفظا وتركيبا وتصريفا واشتقاقا، هي اللغة التي تستطيع أن تنقل خلجات النفس، وهمهمات الصدور، وأفكار العقول، هي اللغة الحية المشرقة التي يقول الشافغي عنها: "ولسان العربِ أوسع الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظا ، ولانعلمه يُحيطُ بجميع علمه إنسان غير نبي ، ولكنه لايذهب منه شيء على عامتها حتى لايكون موجودًا فيها من يعرفه ، والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه "[1] ويؤكد العقاد على عظمة اللسان العربي وسبقه لكل اللغات من خلال لغة تشريحية لجهاز النطق عند الإنسان يقول – رحمه الله – : " وإذا قِيسَ اللسان العربي بمقاييس علم الألسنة ، فليس من اللغات لغة أوفى منه بشروط اللغة في ألفاظها، وقواعدها، ويحق لنا أن نعتبر أنها أوفى اللغات جميعها، بمقياس بسيط واضح، لا خلاف عليه، وهو مقياس جهاز النطق في الإنسان، فإن اللغة العربية تَستخدم هذا الجهاز الإنساني على أتمه وأحسنه، ولا تهمل وظيفةً واحدةً من وظائفه، كما يحدث ذلك في أكثر الأبجديات اللغوية، فلا الْتباس في حرف من حروفها بين مخرجين، ولا في مخرج من مخارجها بين حرفين"[2] فلا عجب بعد كل هذا أن يختار الله – عزوجل– اللغة العربية وعاء للكلمة الربانية.

والقرآن الكريم عربي؛ لأن الله – عزوجل– لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه، قال تعالى: {**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ...** } سورة ابراهيم(٤) فقد خاطبهم القرآن الكريم باللسان الذي يحسنون استخدامه ويبرعون فيه حتى وصفه الله – عزوجل– بالحاد قال تعالى: "**فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد**" الأحزاب (١٩)، ولو جاءهم بغير هذا اللسان، لما عقلوا منه شيئا ولما انتفعوا به ،ولصبوا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – التهكم والسخرية

(١) الرسالة ص ٤٢.

(٢) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب . عباس محمود العقاد . ص١٠وما بعدها .مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر .ط ٢٠١٣ م.

صبا ولكن القرآن انتزع من كافرهم الاعتراف بجماله بل اعترفوا بقوته وشدة تأثيره والوصف (عربي) لافت إلى هذا المعنى ؛ لأنه يستثير فيهم دواعي المعارضة ويدفعهم لها دفعا ويهيج نفوسهم لها فلامجال إذن للقول بالصّرفَة .

والقرآن الكريم عربي؛ فالقرآن المعجز هو العربي وليست ترجمته قرآنا؛ "لأنها من عبارات البشر، ولأن الترجمة لَا يمكن أن تكون محققة لمعاني القرآن، إذ هوعميق يغوص فيه الغواصون على الحقائق وتزيد المعاني في نفس القارئ بمقدار ما يزداد إدراكه، وهو واضح لكل إنسان بمقدار إدراكه، فالأمي يدرك منه بمقدار ما تتسع له طاقته العلمية، والعالم بالكون تتسع له المعاني بمقدار طاقته، ولذا وصفه العربي البليغ بقوله: إن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو، ولا يُعْلَى عليه، ولا يصح أن يدعى لأحد أنه ترجم القرآن، وأن ترجمته قرآن يتعبَّد بتلاوته، ويسجد له سجدة تلاوة ولا يمسه إلا وهو طاهر "[١].

والقرآن الكريم عربي ، فلا عزة ولانهضة ولا كرامة ولا شرف للأمة إلا بهذه اللغة، قال تعالى: **(لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون)** الأنبياء(١٠) يقول الرافعي– رحمه الله –: "وما ذلَّت لغة شعب إلا ذلّ، ولا انحطت إلا كان أمره فى ذهاب وإدبار، ومن هذا يفرض الأجنبى المستعمر لغته فرضًا على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثة فى عمل واحد: أما الأول فحبس لغتهم فى لغته سجنًا مؤبدًا، وأما الثانى فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًا ونسيانًا، وأما الثالث فتقييد مستقبلهم فى الأغلال التى يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبع"[٢].

والقرآن الكريم عربي فلا يدرس ولا يتدبر فيه إلا من خلال مناهج تدبره ، تلك المناهج التي نشأت في رحاب الدراسات الإعجازية للقرآن الكريم ، فنفحت منها

(١) زهرة التفاسير. الشيخ / محمد أبوزهرة . ج٧ ص ٣٧٩٥ . دار الفكر العربي . بدون .

(٢) وحي القلم مصطفى صادق الرافعي: ٢٩/٣ . المكتبة العصرية . بيروت . بدون .

واستوت على عوده من خلالها ، هذا المنهج الذى نرى روحه عند عبد القاهر وتقسيماته عند السكاكي وعمقه عند أصحاب الشروح والحواشي هو المنهج الذى يجب أن نتكئ عليه فى فهم النص القرآنى وغيره ، ذلك المنهج الكاشف للدقائق المثور للمعانى، فيحدث التجاوب المطلوب، ويزداد الإحساس بالنص ، خاصة أن كثيراً من محاضن اللغة والثقافة فى وطننا العربي أخذ يبشر بنظريات نقدية مستجلبة من الغرب لم توقفنا على جماليات النص الشعري بل وأبعدتنا عن جو الشعر ذاته وشاعريته والإحساس به، فهل مثل هذه النظريات تستطيع أن تقترب من ساحة الإعجاز القرآني؟! يقول الدكتور محمود توفيق: "أما المناهج التى نشأت فى غير ديارنا فلا تصلح مذهبا وإجراءً للنظر فى لغتنا، وفى بيان الوحى من قبل اللغة، فاللغة جزء من ثقافة كل أمة ولا يصلح ما أقيم لثقافة أمة أن يتخذ منهجا فى ثقافة أمة أخرى، فالثقافة أمر ذاتى، هى ابنة البيئة التى ولدت فيها ولاتنتج فى غيرها إلا شرا مستطيرا [1] ويؤكد أستاذنا الدكتور توفيق على أن الدراسة التي تؤتي أكلها " هي الدراسة العربية المنسول منهاجها من واقع بيان العرب في عصر التنزيل الكريم ، وليست التى تُفْتَنُ بمقولات أعجمية نبتت في غير ديارنا العربية المسلمة ، فإن تلك المقولات ، وإن كانت صالحة مصلحة ما في بيان قومها من الأعاجم فإنها ليست إلا عقيما في ديارنا لاتنتج إلا شؤمًا وإلباسًا وتعمية ، ولساننا والحمد لله رب العالمين لسان عربي مبين ، فكيف بعاقل يرغب عنه إلى لسان أعجمى بهيم ؟![2] فكل دراسة لا تجعلنا على قرب من النص القرآني هي دراسة عقيمة لا فائدة فيها.

---

(١) سبل استنباط المعانى من القرآن والسنة أ٠د/ محمود توفيق سعد ص١٣٥ ٠ مكتبة وهبة . ط أولى بدون ٠

(٢) شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية . د / محمود توفيق محمد سعد ص ٢ . نشر المكتبة الشاملة .

فالنص على أن القرآن الكريم عربي مع أن مادته وألفاظه وتراكيبه وصوره ونظمه ناطق بذلك من أجل هذه الدلالات التي ذكرت ، ويزداد الأمر رسوخا من خلال كثرة التنبيه على هذا الوصف (عربيا) كما هو مقرر في هذا البحث.

رابعا: التناسب بين هذه الآيات وسورة الفاتحة :

تثوير هذا الموضوع والأخذ بأدواته يساعد على الفهم الواعى والشامل لمعطيات المعنى القرآنى، كما أن إبراز التناسب بهذا المعني يكشف عن مراتب أخرى للإعجاز البلاغي، ودراسة التناسب على هذا النحو الناظر للقرآن الكريم كله على أنه آية واحدة بل كلمة واحدة من الفاتحة إلى الناس من حق القرآن الكريم علينا ، والفاتحة هي أم القرآن وأم الكتاب المشتملة على مقاصد القرآن الكريم كله ولذلك وجب رد كل سوروآيات القرآن الكريم إليها قال ابن القيم: " اعلم أن هذه السورة . الفاتحة . اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن، فاشتملت على التعريف بالمعبود . تبارك وتعالى . بثلاثة أسماء مرجع الأسماء الحسنى والصفات العلا إليها، ومدارها عليها... وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها وتضمنت إثبات النبوة من جهات عديدة "[١] فالفاتحة أصل جامع لما شرح وفصل فى القرآن الكريم كله و"الفاتحة بالنسبة للقرآن الكريم كله بمنزلة مكة من قرى الأرض فهى أم القرى، وكذلك الفاتحة هى محور القرآن الكريم والجامعة معانيه، فكل معانيه مرتبطة بسورة الفاتحة، فكل معني فى كل سورة ولا سيما المعاني الكلية وثيق الاعتلاق والانتساب إلى سورة الفاتحة على اختلاف درجات ظهور الاعتلاق والانتساب"[٢] وذكر أستاذنا الدكتور / إبراهيم الهدهد – حفظه الله ورعاه – أن كل سورة من سور القرآن

(١) مدارج السالكين بين منازك إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم جـ١ ص٧ ت٠أ/ عماد عمار، دار الحديث القاهرة.بدون .

(٢) العزف على أنوار الذكر د. محمود توفيق سعد ص٣٠ مكتبة وهبه، ط أولى ١٤٢٤هـ.

اختصت ببيان جزء من فاتحة الكتاب ، ويدلل على ذلك بأن الشارع أمر بوجوب تكرارها ، في كل ركعة من الفرائض تنبيها إلى عظمها(١).

والمناسبة بين الفاتحة والآيات التي تحدثت عن تنزل القرآن الكريم عربيا بينة بل تكاد تكون ناطقة ؛ فالفاتحة بدأت بالحمد والثناء على الله ابتداء وأحق ما يحمد عليه الله – عزوجل – هو هذا القرآن الكريم والعرب لهم خصوصية في الوفاء بهذا الحمد ؛ لأن القرآن نزل بلسانهم فهم المخاطبون به ابتداء فكان في ذلك تكريم وتخليد لذكرهم ، وإذا كانت الفاتحة اشتملت على طلب الهداية للصراط المستقيم فإن القرآن الكريم كله شرح لهذا الطريق المستقيم ، ولا معرفة لهذا الطريق المستقيم إلا من خلال القرآن الكريم واستنطاق آياته بعد إتقان اللسان العربي المنزل به القرآن الكريم ، وقد أظهر شيخنا الدكتور / محمد عبدالله دراز – رحمه الله – وجه المناسبة بين الفاتحة والقرآن الكريم فقال : " وهكذا حين تنظر إلى القرآن فى جملته نراه يتمثل أمامنا فى صورة مناجاة ثنائية الفاتحة أحد طرفيها، وسائر القرآن طرفها الآخر الفاتحة سؤال، وباقى القرآن جواب، الفاتحة هى طلب الهدى والباقى هو الهدى المطلوب"(٢).

فالعلاقة بين الفاتحة والقرآن كالعلاقة بين السؤال والجواب، فالفاتحة دعاء والقرآن الكريم كله إجابة وبيان لهذا الدعاء وبذلك يتضح ويستقيم رد هذه الآيات موضوع الدراسة إلى فاتحة الكتاب وأن التناسب قائم بينهما وهذا من أبواب البلاغة التي حق لها أن تسمى النمطُ العالي الشريفُ من البلاغة والنظم ، والذي ذكر عبدالقاهر أنه يجيءُ على وجوهٍ شتَّى، وأنحاءَ مختلفةٍ ومن هذه الوجوه القائمة على اتحاد أجزاء الكلامِ وتداخل بعضها في بعضٍ، واشتداد ارتباط ثانٍ منها بأول،

(١) ينظر : علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم . د/ إبراهيم صلاح الهدهد . ص ٦٧ . ط أولى ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

(٢) نظرات فى فاتحة الكتاب الحكيم د/ محمد عبد الله دراز، مجلة المجلة، ص١٤، عدد٧ ذو الحجة ١٣٧٦هـ يوليه ١٩٥٧م .

واحتياجها في الجِملة إلى أن تضَعَها في النفس وضعًا واحدا[١] هذا التناسب الرابط بين كل سور وموضوعات القرآن الكريم .

خامسا: التناسب بين هذه الآيات والسياق النزولي:

قبل أن نبين تناسب الآيات في السياق النزولي ، يجب أن نجيب عن هذا السؤال: ما الفائدة في دراسة الآيات أو السور في سياقها النزولي ؟ والجواب: أنه إذا لم تكن فائدة في ذلك لما انشغل العلماء ببيان المكي والمدني من سور القرآن الكريم لكنهم عالجوا ذلك واستفاضوا في دراسته بل وجعلوا الفيصل فى التفرقة بين المكى والمدنى ليس هو مكان النزول إنما هو كونه بعد الهجرة أو قبلها، فإن كان قبلها فهو مكى وإن كان بعدها فهو مدنى ولو نزل بمكة[٢]. والترتيب النزولي مخالف للترتيب المصحفي وذلك لاختلاف المقصود من كلا الترتيبين "فهو فى ترتيبه النزولى منهج لتأسيس دعوة، وهو فى ترتيبه المصحفى أسلوب حياة وبناء حضارة، ودستور للعالم كله محيط بكل صغيرة وكبيرة من حاجاته ومطالبه، أحكم ترتيبه من هذه الوجهة ليكون هداية للمؤمنين"[٣].

فالاهتمام ببيان لحمة التناسب بين الآيات وسياق نزولها يعطي منهجا سليما للدعوة الإسلامية، ودروسا للدعاة فى مختلف العصور والأمكنة، فالقرآن الكريم له نظام وهدف فى ترتيبه النزولى فقد كان يتنزل مراعاة لحاجة الدعوة الناشئة، والتدرج بالمدعوين شيئا فشيئا، والإجابة على أسئلتهم، وكل ما يعرض لهم من مشكلات، وفهم هذه الأمور وكيفية تعامل القرآن معها يعطي لنا اليوم إضاءات

(١) ينظر : دلائل الإعجاز . عبدالقاهر الجرجاني . ص ٩٣ ت. الشيخ / محمود شاكر. مطبعة المدني بالقاهرة . ط . الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٢) ينظر: مناهل العرفان٠ الشيخ الزرقانى جـ١ ص ١٦٢. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة الثالثة ..بدون .

(٣) مقدمة تحقيق كتاب تناسق الدرر فى تناسب السور للإمام السيوطى ، ت . د/ عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية . بيروت

على الطريقة المثلى للتعامل الدعوى مع البشر على اختلافهم وتنوعهم ، كما أن قراءة الآيات في سياقها النزولي يثري المعنى القرآني وقد يكشف عن شيء في خصائص النظم لا يعرف إلا من خلال هذا الواقع النزولي فمعرفة ذلك طريق قوي في فهم معاني القرآن الكريم فالنظر للآيات من خلال قراءتها في هذا السياق يعد إضاءة إعجازية أخرى للقرآن الكريم المتعدد وجوه إعجازه ، وقد يسأل سائل: إذا كان الأمر كذلك فلِم لَم يكن الترتيب المصحفي وفق ترتيب النزول؟!.

والجواب: أن القرآن الكريم لو جمع ورتبت سوره على حسب ترتيب نزوله " لفهم بعض الناس أن آياته خاصة بحوادثها أو أنه حلول وقتية للمشكلات التى كانت على عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم– فحسب، والله تعالى يريد كتابه عاما خالدا لا يختص بعصر دون عصر، ولا بقوم دون قوم، لذلك اقتضت الحكمة أن يرتب ترتيبا يحقق هذا العموم، وهذا الخلود، ويبتعد عن الترتيب الزمني الذى نزل به"[1] فالقرآن من أي جهة نظرت إليه أعطاك إشراقات .

والآيات موضوع الدراسة كلها آيات مكية عدا آية الرعد (وكذلك أنزلناه حُكما عربيا)(٣٧) فهي مدنية والحديث عن نزول القرآن الكريم عربيا مناسب للمرحلة الدعوية المكية؛ إذ الحديث عن القرآن الكريم وإعجازه والتحدي به من أبرز مواضيع القرآن المكي؛ لأن الحديث عن القرآن الكريم كان هو شغل العرب الشاغل في مجالسهم وأنديتهم، وقالوا عن القرآن إنه شعر شاعر وقول كاهن وأساطير الأولين بل زادوا وزعموا أن النبي – صلى الله عليه وسلم – إنما يعلمه بشر، فلذلك كثر الحديث عن القرآن الكريم وتنزله من الرحمن الرحيم وتصريف الوعيد وضرب الأمثال فيه وكل ذلك لعلهم يعقلون أو يتقون أو يشكرون أو يعلمون، كما أن في ذكر تنزيل القرآن الكريم عربيا في هذه المرحلة المبكرة للدعوة

(١) المجتمع المثالى كما تنظمه سورة النساء أ/ محمد محمد المدنى ص ٢ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . بدون .

وتحديهم به استثارة لهؤلاء العرب الخصمون أصحاب الحمية الجاهلية الذين يشربون الماء صفوا ويشرب غيرهم كدرا وطينا فقوم معروف عنهم هذه الصفات ليس سهلا عليهم التحدي في أخص وأعز مايملكون " فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلَّمًا يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا ... حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف. وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا عن نفسه بالقلم واللسان"[١] فالتركيز على الصورة الإعجازية للقرآن الكريم وعربيته يناسب المرحلة المكية ؛ لأنه الدليل الواضح على صدق النبي – صلى الله عليه وسلم – ولما كانت المدينة المنورة مهد إقامة الدولة الإسلامية ناسب ذلك التعبير عن القرآن الكريم بـ(الحُكم) ووصفه بكونه عربيا في إشارة إلى أن هذا اللسان العربي هو الحاكم لكل القوانين ، فلا قوانين من هنا أوهناك وبذلك يتضح التناسب بين الآيات وسياقها النزولي .

(١) النبأ العظيم . د / محمد عبدالله دراز . ص ١١٣وما بعدها .

المبحث الأول

وصف القرآن الكريم بكونه عربيا في ستة مواضع

الموضع الأول: مطلع سورة يوسف :

{الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ} يوسف: ١– ٢

سورة يوسف سورة مكية بل هي من أواخر السور المكية نزولا[١] وقد شغلت السورة بقصة يوسف – عليه السلام– فالنبي – صلى الله عليه وسلم – ومن معه من المسلمين قد اشتد بهم الأذى وزلزلوا ، فجاءت هذه السورة لتبدد أي يأس قد يعتلج في النفوس ؛ لأن قصة يوسف هي قصة الأمل والمواساة والصبر الجميل ، والتسامح ، هي قصة النصروالتمكين ، بعد العذاب والمعاناة ، قصة الثقة فيما عند الله – عزوجل– فالسورة تناسب المرحلة الدعوية المكية التي أشعت فيها .

والسورة هي السورة الثانية عشرة وترتيبها في المصحف بعد هود ويبين البقاعي وجه المناسبة بين ختام هود ومطلع يوسف فيقول : (لما ابتدئت السورة الماضية بأن هذا الكتاب محكم، وختمت بالحكمة المقصودة من قص أنباء الرسل، وكان السياق للرد عليهم في تكذيبهم به في قوله {أم يقولون افتراه} هود (١٣) ودل على أنه أنزل بعلمه، ابتدئت هذه لإتمام تلك ، الدالة بالإشارة إلى ما له من علو المحل وبعد الرتبة، فعقب سبحانه هذه المشكلة التي ألقاها بالأحرف المقطعة وبان أنها مع إشكالها عند التأمل واضحة بقوله مشيراً إلى ما تقدم من القرآن وإلى هذه السورة: {تلك} أي الآيات العظيمة العالية {آيات الكتاب} أي الجامع لجميع

(١) ينظر : البيان في عد آي القرآن . أبو عمرو الداني . ص ١٦٧. ت . أ / غانم قدوري الحمد .مركز المخطوطات والتراث – الكويت . ط. الأولى، ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م .

المرادات "[١] وجاء الحديث بعد المطلع عن أحسن القصص ، تأكيدا عمليا على عظمة هذا البيان المعجز.

وقد بدئت سورة يوسف بأحرف مقطعة (الر) وأقوال العلماء فيها مشهورة معروفة وأقرب الآراء أنها سر من أسرار الله – عزوجل – وأطمئن إلي أن ذكر هذه الحروف في بدايات السور راجع إلى طلاقة قدرة الله – عز وجل– في تحدي العرب بأن يأتوا بمثل هذا القرآن وهم أرباب الفصاحة والبيان الذين علقوا الشعر على جدار الكعبة قدس أقداسهم، والذين جعلوا لأشعارهم سوقا يتبارون فيها، تأتي هذه الحروف لا لتظهر عجزهم بل لتؤكد تمام عجزهم وضعفهم فالقرآن الكريم حروف من جنس حروفهم ومع ذلك لا يستطيعون الاقتراب من معارضتة ولو استعانوا بالجن يقول ابن كثير – بعد أن أورد كافة الأقوال في الحروف المقطعة – : "إِنَّمَا ذُكِرَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا بَيَانًا لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَأَنَّ الْخَلْقَ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ هَذَا مَعَ أنه مركب مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا "[٢] ورجح الزمخشري ذلك في تفسيره وانتصر له؛ إذ يرى أن مجموع الحروف التي بدئت بها هذه السور يبلغ أربعة عشر حرفاً، وهي نصف حروف المعجم كما تحتوي هذه الحروف على لطيفة أخرى– هي أنها تشتمل على أنصاف أنواع الحروف: المجهورة والمهموسة، والشديدة، والمستعلية[٣] ليخلص الزمخشري إلى قوله : "فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل

(١) نظم الدرر ج ١٠ ص ٥. دار الكتاب الإسلامي. القاهرة . بدون .

(٢) تفسير القرآن العظيم . ابن كثير . ج١ ص ٧١ .ت . أ/ محمد حسين شمس الدين . دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت ط .الأولى – ١٤١٩ هـ

(٣) ينظر : الكشاف . الزمخشري . ج١ ص ٢٩ . دار الكتاب العربي – بيروت ط . الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

واختصاراته ، فكأن الله – عز اسمه – عدّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم"(١).

ومما يؤيد هذا الرأي ويقويه كما يقول شيخنا المطعني –عليه رحمة الله–: "أن ستاً وعشرين سورة مما فواتحه حروف مقطعة مكية النزول، والعلة أن مظاهر العناد والتحدى للدعوة الجديدة في مكة قد بلغ نهايته فناسب ذلك أن يورد القرآن كثيراً من النماذج التي تؤيد صحة الدعوة، وتؤكد نسبتها إلى الله تعالى ، كما أن معظم هذه السور فيها حديث –بعد الفواتح مباشرة – عن سمو القرآن وعلو طبقته: (ذَلِكَ الكتَابُ لَا رَيْبَ فيه هُدىً لّلمُتقينَ)، و(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلتْ) . . . إلىَ آخر هذه الآيات والمطالع"(٢) فالسور التي افتتحت بالحروف المقطعة ، فيها حديث عن القرآن الكريم وثبوت نزوله، حتى السور التي لم يأت بها ذكر للقرآن الكريم مباشرة فيها حديث عن القرآن الكريم وإعجازه، مما يدل على شدة الارتباط ووثوق الصلة بين الحروف المقطعة ، والحديث عن نزول القرآن الكريم وأنه وحي من الله – عزوجل– لا قبل للبشر به "فالسُّمو ليس من ناحية الخامة التي تُكوِّن الكلام، ولكن المعجزة أن المتكلم هو الحق سبحانه فلا بد أن يكون كلامه مُعجزاً؛ وإن كان مُكوَّناً من نفس الحروف التي نستخدمها نحن البشر"(٣).

وقد كان أبوهلال حصيفا عندما رأى في هذه الحروف حسن ابتداء يقول – رحمه الله –: "وإذا كان الابتداء حسنا بديعا، ومليحا رشيقا، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء من الكلام؛ ولهذا المعنى يقول الله عز وجل: آلم. وحم.

---

(١) السابق والصفحة .

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية . د / عبدالعظيم المطعني ج١ ص ٢٠١ .مكتبة وهبة . ط . الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م .

(٣) تفسير الشعراوي ج١١ ص ٦٨٢١. مطابع أخبار اليوم ط ١٩٩٧ م .

وطس. وطسم وكهيعص؛ فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد، ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده والله أعلم بكتابه."[١].

وبعد هذا الافتتاح جاء الحديث عن القرآن الكريم مباشرة : (تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ) وأرى أن الإشارة الحسية بـ(تلك) والتي تميز الآيات أكمل تمييز وتجعلها حاضرة حضور المحسوس هي بداية سقوط المعاندين في التحدي بالقرآن الكريم مما يثبت أن القرآن الكريم وحي من الله لا قدرة لبشري عليه، لأن (تلك) التي اشتملت على لام البعد تثبت له بعد المنزلة وعلو المرتبة وعظيم المقام ، فالآيات قريبة منكم واضحة التكوين والمادة ومن جنس حروفكم ولكن لا تستطيعون إليها سبيلا فالآيات قريبة بعيدة. والآية في مدلولها اللغوي تأتي بمعنى المعجزة، والعلامة، والدليل، والعبرة، والأمر العجيب، وهذه المعاني كلها مرادة في تسمية هذا الجزء من القرآن الكريم(آية) "فالآية القرآنية معجزة، يعجز الجن والإنس عن الإتيان بمثلها، إذا كانت في مثل سورة الكوثر طولًا وهي أمر عجيب غاية في العجب لما لها من حلاوة وطلاوة، وتأثير خاص يأخذ بتلابيب العقول، ومجامع القلوب، وهي علامة على أنها من عند الله تعالى، لا يسع القارئ والسامع إلّا أن يشهد بذلك طوعًا أو كرهًا، وهي دليل قاطع على صدق من نزلت عليه ؛ لأنه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولم يجلس في حياته إلى معلم، وهي عبرة لمن اعتبر، وعظة لمن اتعظ، تقشعرُّ منها جلود الذين يخشون ربهم، وتلين قلوبهم إلى ذكر الله."[٢] فالمناسبة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي جلية وواضحة، ولا نجد في اللغة كلها

(١) الصناعتين . أبوهلال العسكري . ص ٤٣٧. ت . أ/ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العنصرية – بيروت
ط . ١٤١٩ هـ

(٢) دراسات في علوم القرآن . د / محمد بكر إسماعيل . ص ٥٣. دار المنار. ط .الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٩

على اتساعها لفظا مثل (الآية) لندل به على جزء من أجزاء القرآن الكريم له مبدأ ومنتهى، يشكل مع غيره تكوينا لسور القرآن الكريم.

و(الكتاب) هو القرآن الكريم "وإطلاق اسم الكتاب على القرآن باعتبار أن الله أنزله ليكتب وأن الأمة مأمورة بكتابته وإن كان نزوله على الرسول – صلى الله عليه وسلم – لفظا غير مكتوب. وفي هذا إشارة إلى أنه سيكتب في المصاحف، والمراد بـ(الكتاب) ما نزل من القرآن قبل هذه السورة وقد كتبه كتاب الوحي"(١). وتعريفه أفاد الكمال والجلال حتى أنه لا يستحق أن يسمى كتابا في الوجود إلا القرآن الكريم ويرى الإمام عبدالقاهر أن القرآن الكريم إنَّما سُمِّي كتابا لما جيء فيه من الأمر والنهي والقصصِ والمواعظِ والوعد والوعيد وكل شيء جمعتَه فقد كتبتَه(٢) ولمح الشيخ / محمد عبدالله دراز معنى جليلا في دلالة تسمية الوحي الإلهي قرآنا وكتابا يقول . رحمه الله . :" وفى تسميته بهذين الاسمين "القرآن " أو " الكتاب " إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه فى موضعين لا فى موضع واحد ، أعنى أنه يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق لرسم الجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التى وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر"(٣) ٠وقد جاء في هذا المطلع الحديث عن كلام الله – عزوجل – في صورته المكتوبة

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٥ ص ١٥٩. . مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان . ط .الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٢) دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر . الشيخ / عبدالقاهر الجرجاني .ج١ ص ٩٤. ت . أ/ وَليد بِن أحمد بن صَالِح الحُسَيْن، و إياد عبد اللطيف القيسي . مجلة الحكمة. بريطانيا . ط الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م .

٣) النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز ص ٦ ٠ دار طيبة للنشر والتوزيع ط أولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

(الكتاب) وفي صورته المقروءة (قرآنا)، ليدل على وجوب التلازم بين النص المكتوب والنص المقروء عناية بتمام حفظه و بعده عن كل ريب، وجاء وصف الكتاب بـ(المبين) في مطلع ثلاث سور: يوسف والشعراء والقصص (تلك آيات الكتاب المبين) وجاء هذا الوصف للكتاب بدون (أل) في سورة المائدة (**... قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)** (١٥) وفي مطلع النمل **(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ)** (١) وللقرآن الكريم في مطلع الحجر **(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)** (١) وفي سورة يس **(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)**(٦٩)، وجاء وصف لغة القرآن الكريم بهذا الوصف في سورة النحل (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (١٠٣) وفي الشعراء (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (١٩٥) فالتأكيد على هذا الوصف له دلالته وله أثره، وله مباغتته وفجاءته التي تدعو العقل اليقظ إلى التدبر في هذا القرآن المبين، فالسور تبدأ بحروف مقطعة ثم بعد ذلك يوصف الكتاب أو القرآن بالمبين، وفي ذلك إشارة إلى أن ما خفي عنكم من وجوه إعجاز القرآن الكريم ومعانيه ليس راجعا إلى القرآن في ذاته وإنما يبقى القرآن الكريم حافلا بأسراره ذاخرا بأطيابه لمن يفتح الله عليه ويجعله أهلا لاستقبال فيوضاته؛ فالقرآن هو هو محفوظ برواياته المتواترة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يتغير فيه صوت ولا حرف وإنما الذي تغير هو القلب الذي يستقبل، ويصطفي الله –عز وجل– لهذا القرآن الكريم القلوب جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن لتبقى عطاءات القرآن الكريم متجددة حية نابضة و(المبين) فيه مجاز عقلي حيث أسند اسم الفاعل إلى ضمير (الكتاب) ، والعلاقة هي وصف الشيء بوصف

محدثه وصاحبه ، وهي علاقة زادها التفتازاني في مطوله [1] فالمبين هو صاحب هذا الكتاب وهو الله – عزوجل– وكثير من الآيات أسندت فيها الإبانة إلى الله – عزوجل – وبلاغة هذا الإسناد كامنة في المبالغة في وصف القرآن الكريم بقوة الإبانة ، وشدة وضوحها ،لأن صاحب الكتاب هو الله – عزوجل – والكلام كلامه فبقدر هذا الوصف في حق الله – سبحانه – تكون إبانة وبيان القرآن الكريم ، فليس بعد كلام الله – عز وجل – إيضاح وإظهار وإفهام ، ولم لا ؟ وأبو الحسن الحرالي يقول : " اعلم أن بلاغة البيان تعلُو على قدر علو المبين ،فعلو بيان الله على بيان خلقه بقدر علو الله على خلقه فبيان كل مبين على قدر إحاطة علمه "[2] والله – عزوجل – أحاط بكل شيء علما ، والله – عزوجل – هو القادر المقتدر وهو صاحب كل جمال وجلال وكمال ، الذي خلق الإنسان وعلمه البيان ، فكيف يكون بيانه وعطاؤه – سبحانه – ؟ ! قال تعالى : **{قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ولَو جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}** "{الكهف: ١٠٩} فالقرآن الكريم بهذا الوصف المبين أو الحكيم كائن حي قوي قادر نافذ له تأثيره على كل من كان له قلب فطري لم يسوده الحقد والعناد ، وأرى في وصف القرآن الكريم بهذا الوصف (مبين) دلالة أخرى فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب وأساليبهم فيأتي هذا الوصف تنقية للغة القرآن الكريم من كل الشوائب والقصور التي في لغة العرب من التعقيد والتعمية والإلغاز والغموض يقول البقاعي: "لما كان في العربي ما هو حوشي لفظاً أو تركيباً، مشكل على كثير من العرب، قال: {مبين*} أي بين في نفسه كاشف لما يراد منه غير تارك لبساً عند

(١) ينظر : المطول . سعد الدين التفتازاني . ص ١٩٨. ت . د/ عبدالحميد هنداوي . دار الكتب العلمية . بيروت .ط الثالثة . ٢٠١٣م

(٢) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل . أبو الحسن الحرالي المراكشي . ص٢٩. سلسلة دار التراث للنشر ط أولى ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م.

من تدبره حق تدبره على ما يتعارفه العرب في مخاطباتها، من سائر لغاتها، بحقائقها ومجازاتها على اتساع إراداتها، وتباعد مراميها في محاوراتها، وحسن مقاصدها في كناياتها واستعاراتها"[١] وكان مناسبا لكل تلك العطاءات عدم ذكر مفعول للإبانة؛ لأن الغرض هو إثبات الإبانة لهذا الكتاب المعجز فهو في ذاته واضح الدلالة وبقدر طاقات المتدبر العلمية والروحية يكون الاستيعاب لأسرار كلام الله – سبحانه – فعدم ذكر متعلق للإبانة جعل القرآن الكريم مبينا لكل شيء من شأنه صلاح الدنيا والآخرة؛ ولذلك لما أراد الشافعي أن يتحدث عن الإبانة ووجوهها طال به التفسير وتعديد الوجوه ، يقول – رحمه الله –: "فجِمَاع ما أبان الله لخلقه في كتابه، مما تَعَبَّدَهم به، لما مضى من حكمه جل ثناؤه: من وجوه ، فمنها ما أبانه لخلقه نصاً. مثلُ جمُل فرائضه، .... وأنه حرَّم الفواحش، ما ظهر منها، وما بطن، ..... ومنه: ما أَحكم فرضه بكتابه، وبيَّن كيف هو على لسان نبيه؟ مثل عدد الصلاة، والزكاة، ووقتها، وغير ذلك من فرائضه التي أنزل من كتابه. ومنه: ما سَنَّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم – مما ليس لله فيه نصٌّ حكم، وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والانتهاء إلى حكمه، فمَن قبل عن رسول الله فبِفَرْضِ الله قَبِل. ومنه: ما فرض الله على خلقه الاجتهادَ في طلبه، وابتلى طاعتهم في الاجتهاد، كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم"[٢].. فالْكِتَابُ الْمُبِينُ – كما قال المراغي–: "هُوَ الْقُرْآنُ، وَهُوَ بَيِّنٌ فِي نَفْسِهِ، مُبَيِّنٌ لِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَاسُ لِهِدَايَتِهِمْ"[٣].

ووُصف الكتاب هنا بـ (المبين)ووُصف الكتاب في مطلع سورتي يونس ولقمان بـ(الحكيم) لأن " قصة يوسف– عليه السلام– لم تكن معروفة للعرب قبل

(١) نظم الدرر ج١٤ ص ٩٩.

(٢) الرسالة .الشافعي . ج١ ص ٢١ .

(٣) تفسير المراغي ج٦ ص ٨٠ . شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر. ط . الأولى، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦م .

نزول القرآن إجمالا ولا تفصيلا، بخلاف قصص الأنبياء: هود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب- عليهم السلام أجمعين-، إذ كانت معروفة لديهم إجمالا، فلذلك كان القرآن مبينا إياها ومفصلا."[1] كما أن معنى الإبانة جاء مع كل أحداث قصة يوسف ، فتأويل رؤيا يوسف – عليه السلام – فيه إيضاح وبيان لها ، وفي قوله تعالى: (لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ) (٧) سؤال والسؤال يحتاج إلى إبانة وإيضاح ، ومكر إخوة يوسف – عليه السلام – به لم يسلم به يعقوب – عليه السلام – بل استعان بالصبر حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا فيكشف عما فعلوه فيظهر ويبين قال تعالى : (وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) (١٨)

وقصته عليه السلام مع امرأة العزيز احتاجت إلى تفسير وبيان وهو ما جاء على لسان الشاهد قال تعالى : (قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ) (٢٧) ورؤيا صاحبيه في السجن احتاجت تأويلا وكشفا ، ورؤيا الملك تحتاج إلى تفسير وبيان وختمت السورة بما يدل على أن هذا القرآن تفصيل كل شيء ، قال تعالى : (لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ)(١١١)

(١) التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. ج ١٢ ص ٢٠١. مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان . ط .الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

فوصف الكتاب بكونه (مبينا) أنسب لسورة يوسف ؛ لأنه يمتد مع السورة وأحداث القصة وكافة أجزائها ومنعطفاتها خاصة أن القصة بجملتها لم تكن معروفة للعرب، كما أن هذا الوصف مناسب للحديث عن عربية القرآن الكريم، فالمطلع شأن كل مطالع سورالقرآن الكريم، في منتهى الدقة وروعة الإعجاز وبراعة الاستهلال.

أما سورة يونس فناسبها وصف الكتاب بالحكمة؛ وذلك لما اشتملت عليه السورة من اختيار النبي – صلى الله عليه وسلم – وتكليفه بالرسالة وحديث السورة عن خلق السموات والأرض والاستواء على العرش وجعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل لمعرفة السنين والحساب، واختلاف الليل والنهار، وتسييرالناس في البر والبحر والحديث عن البعث والحساب وتحدي العرب بالقرآن الكريم، والحديث عن وحدانيته – سبحانه – كل ذلك يناسبه وصف الكتاب بالحكيم، ولم تخرج سورة لقمان عن هذه المعاني والأغراض ففيها حديث عن خلق السموات بغير عمد وإلقاء الرواسي في الأرض وإنزال الغيث، وتسخير كل ما في السموات والأرض، والحديث عن خلق الإنسان وبعثه، وولوج الليل في النهار وعكسه، وتسخير الشمس والقمر، وجريان الفلك في البحر كل ذلك يناسبه وصف الكتاب بـ(الحكيم) لما اشتملت عليه السورة من طلاقة قدرة الله – عز وجل– .وما ذكرته هو تفصيل لما أوجزه الغرناطي في قوله: " قوله تعالى في سورة يونس: "الر تلك آيات الكتاب الحكيم" وفى سورة لقمان "الم تلك آيات الكتاب الحكيم " وفى مطلع يوسف: "الر تلك آيات الكتاب المبين " فافتتحت تلك السور الثلاث بعد الحروف المقطعة فى مطالعها بالإشارة إلى الكتاب المذكر به والمنبه بآياته فقيل: "تلك آيات الكتاب " ثم وصفه فى السورتين بالحكيم وفى سورة يوسف بالمبين فيسأل عن ذلك؟والجواب والله أعلم أن سورتى يونس ولقمان تردد فيهما من الآيات المعتبر بها المطلعة على

عظيم حكمته تعالى وإتقانه للأشياء ما لم يرد فى سورة يوسف"[١] ومن تمام البيان لكتاب الله – عزوجل – إنزال القرآن الكريم باللغة العربية التي يفهمها العرب ويبرعون فيها، قال تعالى: **(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** فهذه الآية استئناف أفادت تعليل الإبانة من جهتي لفظ القرآن الكريم ومعناه، فإن كونه قرآنا يدل على إبانة المعاني، لأنه ما جعل مقروءا إلا لما في تراكيبه من المعاني المفيدة للقارىء، وكونه عربيا يفيد إبانة ألفاظه المعاني المقصودة للذين خوطبوا به ابتداء، وهم العرب، إذ لم يكونوا يتبينون شيئا من الأمم التي حولهم لأن كتبهم كانت باللغات غير العربية[٢].

وفي قوله تعالى : (إنا أنزلناه) جاء إسناد النزول إلى الله – سبحانه – مؤكدا بـ(إن) فهي حرف توكيد ينشر دلالته على المعاني التي دخلت عليه ، ويلاحظ على جمل المطلع، أنها جمل اسمية والجملة الاسمية تدل على دوام الثبوت فكون الكتاب مبينا واضحا وموضحا ثابت ودائم ، وكذلك نزول القرآن الكريم عربيا لعلة الإفهام والتعليم أمر دائم وثابت ولازم في كل عصر ومصر، فهذه المعاني خصائص ثابتة وعلامات قائمة لا ينفك كتاب الله – عز وجل – عنها، وتلك المعاني الراسخة يناسبها دلالة الجملة الاسمية يقول الكفوي: "الْجُمْلَة الأسمية تدل بمعونة الْمقَام على دوَام الثُّبُوت، وَإِذا دخل فِيهَا حرف النَّفْي دلّت على دوَام الانتفاء لَا على انْتِفَاء الدَّوَام"[٣].

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل . الغرناطي . ج ١ ص ٢٣٧.ت . أ/ عبد الغني محمد علي الفاسي دار الكتب العلمية . بيروت . بدون .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ج١٢ ص ٢٠٠ .

(٣) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية . أبوالبقاء الكفوي. ص ١٠١٠ت . أ / عدنان درويش و محمد المصري
مؤسسة الرسالة – بيروت. بدون .

وهذا التأكيد راجع إلى مواجهة هؤلاء المشركين – خاصة في مرحلة الدعوة المكية ، فالتأكيد مناسب لمقتضى حال المخاطبين المعاندين، وفي(أنزلناه) إشارة إلى تنزل القرآن الكريم "والمراد من كونه منزلا أن الله تعالى كتبه في اللوح المحفوظ وأمر جبريل عليه السلام بأن يحفظ تلك الكلمات ثم ينزل بها على محمد صلى الله عليه وسلّم ويبلغها إليه"[١] ويلمح مولانا الإمام الشعراوي في كلمة {أَنزَلْنَاهُ} معنى العلو والرفعة؛ ويدلل على ذلك بأن المُنزَّل أعلى من المُنزَّل عليه، فالإنزال من شيء عالٍ، وكأن الحق تبارك وتعالى يلفت أنظارنا ويُصعِّد هممنا، فيقول: لا تهبطوا إلى مستوى تشريع الأرض؛ لأنه يُقنِّن للحاضر ويجهل المستقبل، ويتحكم فيه الهوى فتغيب عنه أشياء فيحتاج إلى استدراك"[٢] ففي الفعل (أنزلناه) معنى التفضل والمنة من الله – عزوجل – على بني البشر، وهذا المعنى يتناسب مع (نا) العظمة التي تعود على الله – تقدست أسماؤه – والتي تدل على عظمة الله – سبحانه – وذلك فيه تكريم وتعظيم وتنويه بشأن المنزل، فعلى قدر عظمة المنزل تكون عظمة ما ينزله وهذا المعنى أدعى إلى تدبر القرآن الكريم والعمل بما فيه ، وهذه العظمة تمتد للرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب العظيم وكذلك إلى الأمة التي نزل فيها هذا القرآن الكريم وكذلك إلى اللغة التي نزل بها هذا الكتاب العظيم.

والمتدبر في الآيات التي تحدثت عن إنزال القرآن الكريم عربيا أنها جاءت بصيغة الإنزال (أنزلناه) ولم تأت صيغة التنزيل (نزّل) إلا في آية فصلت (**حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢**) وآية الشعراء (**وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** (١٩٢) وكل مناسب لسياقه فصيغة (أنزل) قاصدة لمعنى العلو والرفعة المناسبين في مواجهة غطرسة الكافرين أما (التنزيل) فقاصدة إلى التأكيد على مصدرية التنزيل ؛ ولذلك

(١) مفاتيح الغيب . الإمام الرازي .ج ٢٧ ص ٥٢٧. دار إحياء التراث العربي – بيروت ط . الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

(٢) ينظر : تفسير الشعراوي ج ١٥ ص٩٤٠٠.

جاء معها (الرحمن الرحيم) و(رب العالمين) تنويها بعظمة الله المنزل فصيغة (التنزيل) تركز على الحدث وصيغة (الإنزال) تركز على علو ورفعة هذا الحدث.

وهذا الذي أنزل وثبت نزوله من الله (قرآنا) "وقرآنا حال من الضمير المنصوب في أنزلناه ، و(قرآن) مصدر: "قرأ، مثل: غفران وسبحان، وأطلق هنا على المقروء مبالغة في الاتصاف بالمقروئية لكثرة ما يقرأه القارئون وذلك لحسنه وفائدته، فقد تضمن هذا الاسم معنى الكمال بين المقروءات"[١]. وسمي (قرآنا) لأنه نظم على أسلوب تسهل تلاوته ، ولوحظ هنا المعنى الاشتقاقي قبل الغلبة وهو ما تفيده مادة قرأ من يسر تلاوته وما ذلك إلا لفصاحة تأليفه وتناسب حروفه. والتنكير يفيد الكمال، أي أكمل ما يقرأ"[٢] وثمت معنى أردت أن ألفت إليه وهو أن هذا الحال (قرآنا) مقصود قصدا للدلالة على الظاهرة الصوتية الإعجازية للقرآن الكريم فهذا الكتاب عربي الحروف انتظمت أصواته بصفة إعجازية ، فشكلت تأثيرات صوتية إعجازية يتناغم معها حتى من لا يفهم العربية، والعرب يعرفون جيدا القيمة الموسيقية والدلالات النغمية وجاءت أشعارهم على بحور معروفة ونمط موسيقي اهتزوا وطربوا له ولم يخل نثرهم من التنغيم الموسيقي الكامن في السجع والجناس وغيرهما لكن القرآن الكريم جاء بنمط صوتي لا قبل لهم به، "فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته وكلماته في جُمله ، ألحاناً لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمرٌ لا قِبل لهم به، وكان ذلك أبينَ في عجزهم به"[٣] فهذا الحال (قرآنا) يلفت إلى هذا المظهر الإعجازي من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ولعل التركيز في إظهار الصفة المسموعة للقرآن الكريم من خلال هذا الحال (قرآنا) الذي تكررفي الآيات التي

---

(١) التحرير والتنوير . ج ٢٥ ص ٣٥.

(٢) السابق ج ١٦ ص ٣١٤.

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. الرافعي . ص١٤٨ومابعدها . دار الكتاب العربي – بيروت. ط. الثامنة – ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م.

أتبعت بالوصف (عربيا) يناسب حال العرب في الجاهلية؛ إذ كان أغلبهم أمي لايقرأ ولا يكتب وأغلب القصص التي تحدثت عن تفاعلهم مع القرآن الكريم إيجابا أو سلبا إنما كان تأثرا بسماع القرآن الكريم ، حتى قالوا– كما حكى القرآن الكريم –: **(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)** فصلت ٢٦ وما ذلك إلا لأن "أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوعًا يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعًا بالقسط الذي يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس به آنًا بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى"[(١)] وهذا الإعجاز الصوتي المتمثل في (قرآنا) يتناسب أيضا مع الحروف المقطعة التي بدئت بها السورة فإن كنا لا نقف على سرها إلا أن تأليفها الصوتي وتناغمها يكفي للدلالة على إعجاز هذا الكتاب المقروء.

ويجب ألا يغيب عن الذكر خروج هذا التأليف الصوتي المعجز من في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أفصح العرب لسانا وأنداهم صوتا، فكل القراءات المتواترة ترد إليه – صلى الله عليه وسلم – فيزداد الحسن حسنا ويزداد الإعجاز إعجازا ، ووصف القرآن الكريم بكونه (عربيا) مناسب لوصف (الكتاب) بـ(المبين) إذ لا يغيب عنا أصل دلالة الكلمة وما فيها من إفصاح وظهور وبيان وكذلك هذا الوصف مناسب لعطاءات القرآن الكريم التي واجهت المشركين في مكة بعربية القرآن الكريم فقد كانوا يدعون أن أعجميا يعلمه لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال تعالى: **(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)** النحل: ١٠٣. وبهذا النعت الحاكم والقيد الدال (عربيا) تستكمل دائرة التحدي لهؤلاء العرب ، وإذا دلت

(١) النبأ العظيم . ص ١٣٤.

الحروف المقطعة دلالة ضمنية على أن هذا القرآن من جنس حروفهم فإن هذا الوصف (عربيا) دلالته صريحة في التحدي والإعجاز ؛ فهذا القرآن الكريم عربي في حروفه وكلماته وأساليبه وتراكيبه ، وطرائق نظمه

وجاءت جملة (لعلكم تعقلون) مفصولة عما قبلها لما بينهما من اتصال ذاتي هو شبه كمال الاتصال ؛ لأن الجملة السابقة أثارت ذهن المتلقي لمعرفة الحكمة من هذا الإنزال على النحو المذكور، فجاءت جملة (لعلكم تعقلون) لتفصح عن علة إنزال القرآن الكريم عربيا ، والأصل في (لعل) أنها حرف يدل على الرجاء[١] وهذا المعنى لا يجوز في حق الله ؛ لأن معنى الترجي يقتضي عدم الجزم بوقوع المرجو عند المتكلم فللشك جانب في معناها حتى قال الجوهري: «لعل كلمة شك» وهذا لا يناسب علم الله تعالى بأحوال الأشياء قبل وقوعها[٢] ؛ ولذلك فالأولى حمل (لعل) هنا على أنها للتعليل بمعنى (كي) وهذا معنى أثبته الكسائي، والأخفش، وحملا على ذلك ما في القرآن من نحو " لعلكم تشكرون "، " لعلكم تهتدون"، أي: لتشكروا، ولتهتدوا. قال الأخفش في المعاني: "لعله يتذكر " نحو قول الرجل لصاحبه: افرغ لعلنا نتغدى. والمعنى: لنتغدى[٣].

وقد جاءت هذه الجملة (لعلكم تعقلون) فاصلة لسبع آيات في القرآن الكريم[٤]، منها آيتان في بيان علة كون القرآن الكريم عربيا ، وهما آيتا يوسف والزخرف .

---

(١) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني . المرادي . ص ٥٧٩. ت . د/ د فخر الدين قباوة و الأستاذ محمد نديم فاضل
دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط . الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م .

(٢) ينظر : التحرر والتنوير ج ١ ص ٣٢٩ وما بعدها .

(٣) ينظر : الجنى الداني . ص ٥٨٠.ومعاني القرآن . الأخفش . ج ٢ ص٤٤٣. ت . د/ هدى محمود قراعة. . مكتبة الخانجي، القاهرة . ط . الأولى، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .

(٤) ينظر الآيات : البقرة ٧٣/ ٢٤٢ والأنعام ١٥١، ويوسف ٢ والنور ٦١ والزخرف ٣ والحديد ١٧ .

وهذا التعليل (لعلكم تعقلون) يدل على قوة القرآن الكريم وأنه لا يصطدم أبدا لا مع عقل ولا فكر بل إن القرآن الكريم يستثير الفكر ويشحذ العقل فقوله تعالى: (لعلكم تعقلون) "يستنهض همة العقل، ليفكر في الأمر، والمُنْصف بالحق يُهمه أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل، عكس المدلس الذي يهمه أن يستر العقل جانباً؛ لينفُذَ من وراء العقل ، وفي حياتنا اليومية حين ينبهك التاجر لسلعة ما، ويستعرض معك مَتَانتها ومحاسنها؛ فهو يفعل ذلك كدليل على أنه واثق من جودة بضاعته ، أما لو كانت الصَّنْعة غير جيدة، فهو لن يدعوك للتفكير بعقلك؛ لأنك حين تتدبر بعقلكَ الأمر تكتشف المُدلس وغير المُدلس؛ لذلك فهو يدلس عليك، ويُعمِّي عليك، ولا يدع لك فرصة للتفكير"(١) والتعبير بمادة العقل دون العلم مثلا فيه إشارة واضحة إلى أن صاحب العقل الفطري خاصة العربي إذا جاءه هذا القرآن لا يملك أمامه إلا الإيمان والإذعان ؛ لأن العربي خوطب به القرآن الكريم ابتداء ، وهو أقدر البشر على معرفة إعجازه ولذلك من فاته ذلك فهو خارج عن دائرة العقلاء الآدميين إلى غيرهم قال تعالى : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) الأعراف (١٧٩) ولهذه الفاصلة (لعلكم تعقلون) دلالة أخرى فإذا أراد العرب تربية العقل السليم ففي رحاب هذا القرآن الكريم وبهذا اللسان العربي وأرى في هذا دعوة قوية إلى تعريب كافة العلوم وأن نهضتنا بهذه العلوم لن تكتمل إلا إذا أبدع فيها العقل من خلال هذا اللسان العربي وكل الحضارات الناشئة تسعى إلى تعريب علومها وتجعله هدفا قوميا لها "ومن الحقائق المقررة في العلم نفسه أن التعليم المثالي ينبغي أن يكون باللغة الأم؛ اللغة التي تشكل بها العقل وصُبَّتْ بها مقولات الفهم؛ وذلك لكي يكتمل الفهم والاستيعاب، والهضم والتمثل، بدقةٍ وسهولة واقتصاد ذهني، وحتى تعمل

(١) تفسير الشعراوي ج ١١ ص ٦٨٢٨.

ملكة التحليل والجدل والنقد والتساؤل في أعلى مستوى لها، وحتى يمكن إحالة المادة المدروسة إلى الكيان العضوي للمرء بما يسمح بالإضافة إليها والإبداع فيها"[١]

ويرى كثير من المفسرين أن مفعول (تعقلون) محذوف واختلفوا في تقديره فالطبري يجعل المحذوف الضمير العائد على القرآن الكريم ، قال الطبري :" فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ليعقلوه ويفقهوا منه، وذلك قوله: (لعلكم تعقلون) "[٢] وقال القرطبي : " لعلكم تعقلون" أي لكي تعلموا معانيه ، وتفهموا ما فيه " [٣]إشارة إلى أنّ إنزاله كذلك هو سبب لحصول تعقل لأشياء كثيرة من العلوم من إعجاز وغيره وأفاض صاحب المنار في بيان ما يعقل قال – رحمه الله – : "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ مَعَانِيَهُ أَيُّهَا الْعَرَبُ، وَمَا تُرْشِدُ إِلَيْهِ مِنْ مَطَالِبِ الرُّوحِ وَمَدَارِكِ الْعَقْلِ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَتَثْقِيفِ مَدَارِكِ الْوِجْدَانِ وَالْحِسِّ، وَإِصْلَاحِ الِاجْتِمَاعِ الْعَامِّ، الْمُرَادُ بِهَا صَلَاحُ الْحَالِ، وَسَعَادَةُ الْمَآلِ" [٤] وذكر الطاهر ابن عاشور "أن حذف مفعول تعقلون للإشارة إلى أن إنزاله كذلك هو سبب لحصول تعقل لأشياء كثيرة من العلوم من إعجاز وغيره "[٥] وأرى أن الجملة لا حذف فيها وأن الغرض هو إثبات معنى الفعل للفاعل من غير نظر إلى شيء وراء ذلك قال عبدالقاهر الجرجاني : " فاعلمْ أَنَّ أغراضَ

---

١) مغالطات لغوية . الطريق الثالث إلى الفصحى الجديدة . د/ عادل مصطفى . ص ١٩١. مؤسسة هنداوي .ط ٢٠١٧.

٢) جامع البيان في تأويل القرآن . الطبري . ج١٥ ص ٥٥١ ت . الشيخ / أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة. ط الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .

٣) الجامع لأحكام القرآن . القرطبي . ج ٩ ص ١١٩ .ت . أ/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش . دار الكتب المصرية – القاهرة . ط . الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م .

(٤) تفسير المنار . الشيخ / محمد رشيد رضا . ج ١٢ ص ٢٠٨ . الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة ١٩٩٠ م .

(٥) التحرير والتنوير ج ١٢ ص ١٠٢.

الناس تختلفُ في ذكْر الأفعالِ المتعدِّية، فَهُمْ يذكرونها تارةً ومرادُهم أنْ يَقْتصِروا على إثبات المعاني التي اشتُقَّتْ منها للفاعلين، من غير أنْ يتعرَّضوا لذكْر المفعولين. فإذا كان الأمرُ كذلك، كان الفعلُ المتعدي كغَير المتعدي مثلاً، في أنك لا تَرى له مفعولاً لا لفظًا ولا تقديرًا "[1] فيكون المعنى "لعلكم تكونون ذا عقل " فالقرآن الكريم بهذا اللسان العربي المبين يربي العقل وينميه ، فينطلق هذا العقل متدبرا ومتعلما ومهتديا بنوره وآدابه وتعاليمه ، إنها دعوة مفتوحة لكل ذي عقل ليقف على إعجاز القرآن الكريم وعلومه الكثيرة المتنوعة النافعة ، فمهما قدر المفعول لن يشفي الصدور، وحذف المفعول والاكتفاء بإثبات الفعل للفاعل ظاهرة تكاد تكون مطردة في فواصل الآيات القرآنية التي جاءت على هذا النحو مثل (تشكرون)، (تعلمون) ، (تتقون) ، (تفعلون) والغرض هو توافر إثبات الفعل المذكور للمسند إليه، ثم أخذت الآيات في بيان أحسن القصص لتؤكد على تمام إعجاز القرآن الكريم من حيث أسلوبه وبلاغته ومن حيث إخباره بالغيبيات.

وهكذا جاء الوصف (عربي) مناسبا لعطاءات القرآن المبين وجاء أحسن القصص قصة يوسف – عليه السلام – .تأكيدا على إعجاز هذا القرآن العربي المبين ، وكأن النظم يضع بين أيديهم وجها آخر من وجوه المعارضة متمثلا في القصة التي ذكرت كل أحداثها ومشاهدها في سورة واحدة ، ليظهر عجزهم في كل الوجوه والأحوال ، فلايكون لهم بعد ذلك عذرا.

الموضع الثاني: في أواخر سورة طه:

{وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} طه: ١١٣

سورة طه سورة مكية[2] بل ذكر البقاعي أنها من أقدم السور المكية نزولا

(١) دلائل الإعجاز . الشيخ / عبدالقاهر الجرجاني . ص ١٥٤.

(٢) البيان في عد آي القرآن . أبو عمرو الداني . ص ١٨٣.

مستدلا على ذلك بقصة إسلام عمر – رضي الله عنه – [1] و سورة طه هي السورة العشرون في ترتيب المصحف ، وهي في ترتيبها النزولي والمصحفي بعد سورة مريم ، وتلتقي خاتمة سورة مريم (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا)(٩٨) مع مطلع سورة طه ويوضح الألوسي ذلك فيقول : "ووجه ربط أول هذه بآخر تلك أنه سبحانه ذكر هناك تيسير القرآن بلسان الرسول عليه الصلاة والسّلام معللا بتبشير المتقين وإنذار المعاندين وذكر تعالى هنا ما فيه نوع من تأكيد ذلك "[2] والآيات موضوع الدراسة (وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا .....) ترد إلى المطلع قال تعالى : (طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾) وفيها إشارة إلى عظمة القرآن الكريم من خلال بيان شأن المنزَّل وهو الله عزوجل الذي خلق السموات والأرض والعرش المستوي عليه ، وله طلاقة القدرة والملك ، فكل مافي السموات والأرض بل وما تحت التراب ملك له وحده وكل ذلك من شأنه تعظيم المنزَّل والمنزَّل عليه فيتذكر بالقرآن من يخشى جلال الله وكماله، وموقع هذه الآيات من السورة جاء بعد حديث مزلزل عن أهوال يوم القيامة فتأتي الآيات لتبين أن سبيل النجاة وبلوغ حسن المآل هو القرآن الكريم المتحدث عنه سابقا والمنوه به لاحقا بعد هذه المشاهد في قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) (١١٣) وجاء بعد هذه الآية قوله تعالى: (فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا) (١١٤) والمناسبة واضحة فالإنزال والتصريف ووسائل الإصلاح

(١) ينظر : نظم الدرر ج ١٢ ص٢٥٨ وما بعدها .

(٢) روح المعاني . الألوسي . ج ٨ ص ٤٦٣.

كل ذلك ناشىء عن جميل آثار يشعر جميعها بعلوه – سبحانه – وعظمته وأنه الملك الحق المدبر لأمور مملوكاته على أتم وجوه الكمال وأنفذ طرق السياسة(١).

بل إن قصة آدم – عليه السلام – وإبليس التي جاءت بعد هذه الآيات مباشرة تؤكد على معنى يتلاقى مع ما أكدت عليه هذه الآيات وهو أن "الطبيعة الإنسانية من شأنها أن تنسى، وأنها إذا لم تذكَّر بشرع من الله يقوي الإرادة برجاء الثواب وخوف العقاب، لَا تكون للإنسان عزيمة"(٢) فالسورة من أولها تبين أن القرآن الكريم هو سبيل السعادة لا الشقاء وهو سبيل النعيم لا العذاب وفي الإعراض عنه كل هلاك ، **وقد** بدأت الآيات بالتنويه بشأن القرآن الكريم، ومعظم المفسرين على أن قوله – سبحانه–: (وكذلك أَنزَلْنَاهُ..) معطوف على قوله: (كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ...) وأن الكاف بمعنى مثل(٣)، قال البقاعي: "ولما اشتملت هذه الآية على الذروة من حسن المعاني، فبشرت ويسرت، وأنذرت وحذرت، وبينت الخفايا، وأظهرت الخبايا، مع ما لها من جلالة السبك وبراعة النظم، كان كأنه قيل تنبيهاً على جلالتها: أنزلناها على هذا المنوال العزيز المثال {وكذلك} أي ومثل هذا الإنزال {أنزلناه} أي هذا الذكر كله بعظمتنا {قرآناً} جامعاً لجميع المعاني المقصودة {عربياً} مبيناً لما أودع فيه لكل من له ذوق في أساليب العرب"(٤).

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٣١٤.

(٢) زهرة التفاسير ج٩ ص ٤٧٩٧.

(٣) ينظر: .الكشاف. الزمخشري ج ٣ ص٩٠و الجامع لأحكام القرآن .. القرطبي ج١١ ص٢٥٠ ومفاتيح الغيب ج٢٢ ص ١٠٣ومدارك التنزيل وحقائق التأويل . النسفي . ج٢ ص ٣٠٨ . إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم . أبوالسعود العمادي. ج ٤ ص ٣٨٧دار إحياء التراث العربي – بيروت . بدون .وروح المعاني ج٨ ص ٥٧٦: والتحرير والتنوير ج١٦ ص ٣١٤.

(٤) البقاعي ج ١٢ ص ٣٥٠ .

فالمشبه هو ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة وأهوالها والمشبه به هو القرآن الكريم كله وهو تشبيه لإنزال الكل بإنزال الجزء والمراد أنه على نمط واحد[١] فالقصد من التشبيه إفادة أن القرآن الكريم من أوله إلى آخره على نمط واحد من الإعجاز وخلابة البيان وتناسق الخصائص والصفات مع تنوع في الموضوعات والمعاني والأفكار وكل ذلك قد جاء في غاية الدقة والإحكام ، واعتناء بشأن المشار إليه قدم الجار والمجرور (وكذلك) وهذا فيه من التشويق وإثارة الانتباه ما فيه فالأذن تتسمّع قوله تعالى: (وكذلك) فتترقب ما بعدها والإشارة أفادت إحضارالمشار إليه محسوسا أمام العين وفي ذلك دلالة على عظم المشارإليه وبعد منزلته وعلو مكانته .

والضمير في قوله تعالى: (أنزلناه) عائد على القرآن الكريم ولم يسبق له ذكر والأصل في الضمائر الربط بين أجزاء الكلام ، فيبدو النص متماسكا متكاملا منسجما مع الأفكار التي يلاحقها الذهن وذكر النحاة أن الضمير يقتضي أن يكون مرجعه معلوما للمخاطب، سابق الذكر له، فلا يمكن أن يضمر الاسم إلا وقد علم السامع على من يعود[٢] وذكر ابن مالك في التسهيل أن الأصل تقديم مفسر ضمير الغائب، ولا يكون غير الأقرب إلا بدليل، وهو إما مصرح به بلفظه، أو مستغنى عنه بحضور مدلوله حسًّا أو علمًا، أو بذكر ما هو له جزء أو كل أو نظير أو مصاحب بوجه ما[٣] فمبنى النكتة في هذا الضمير(أنزلناه) وسائر نظائره في القرآن الكريم راجع إلى الاستغناء عما يفسر الضمير الغائب؛ لأن هذا الضمير هو ضمير القرآن والقرآن ما غاب ولن يغيب بل هو حاضر في القلوب والعقول بل

---

(١) ينظر : روح المعاني ج٨ ص ٥٧٦.

(٢) ينظر: شرح المفصل . ابن يعيش ج٢. ص ٥٤.ت .د/ ا إميل بديع يعقوب .دار الكتب العلمية .بيروت – لبنان. بدون .

(٣) شرح تسهيل الفوائد، ابن مالك: ١٥٧/١. ت. د. د عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون . دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ط.: الأولى (١٤١٠هـ – ١٩٩٠م).

يجب أن يكون حاضرا في حركاتنا وسكناتنا في أفراحنا وفي أحزاننا وفي محيانا وفي مماتنا وكل أحوالنا وأطوار حياتنا يقول الطاهر : "وفي الإتيان بضمير القرآن دون الاسم الظاهر إيماء إلى أنه حاضر في أذهان المسلمين لشدة إقبالهم عليه فكون الضمير دون سبق معاد إيماء إلى شهرته بينهم"[١] ويعدد سعد الدين التفتازاني بلاغة مجيء المضمر في موضع المظهر فيقول: "وقد يكون وضع المضمر موضع المظهر لاشتهاره ووضوح أمره؛ كقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ}؛ أي القرآن، أو لأنه بلغ من عظم شأنه إلى أن صار متعلق الأذهان، نحو هو الحي الباقي، أو لادعاء أن الذهن لا يلتفت إلى غيره "[٢] فموضع الضمير الغائب مع القرآن الكريم راجع إلى الاشتهار وعظم الشأن وتعلق الأذهان وعدم الالتفات إلا له.

وهذا المنزّل (قرآنا عربيا) وهذا القرآن مقروء ليُحفظ في الصدور وفي السطور ولولا أن هذه الكلمة (قرآنا) لها دلالتها لجاء الكلام على هذا النحو : وكذلك أنزلناه عربيا، لكن النظم الكريم دل بالضمير على القرآن الذي هو كتاب الله ثم جعل من أحوله (قرآنا) ليتبين لنا ما ذكر من دلالات لا تفارق هذا الحال .

وجاء هذا الوصف (عربيا) في سياق سورة اشتملت على قصة موسى عليه السلام وغيرها من الموضوعات التي رغبت فيما عند الله من نعيم ورهبت فيما هو حاصل للعصاة من العذاب، ومؤدى هذا هو بيان عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم في أي حال من أحواله، وقوله: (وصرفنا فيه من الوعيد) معطوفة على جملة (أنزلناه) وجاءت الجمل موصولة للتوسط بين الكمالين، والتصريف من خصائص القرآن الكريم ومعنى التصريف هو التنويع والتفنن، في كل مناحي القول فالقرآن الكريم فيه شتى صنوف الموضوعات فيه حديث عن الله ووحدانيته، فيه

(١) التحرير والتنوير . ج٣٠ ص ٤٥٦.

(٢) المطول . ص ٢٨٣. ت . د/ عبدالحميد هنداوي .

حديث عن الأنبياء وقصصهم، فيه حديث عن التشريعات والأحكام والآداب، فيه حديث عن اليوم الآخر وما فيه من أهوال، فيه وصف الجنة حتى كأننا نراها وفيه وصف جهنم حتى دخل الفزع على القلوب من كل جانب، في القرآن الكريم الترغيب والترهيب، فيه الحديث عن آيات الله الكونية، فيه السور الطوال وفيه القصار والأمر كما قال الله سبحانه: (مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) الأنعام(٣٨) وكما قال سبحانه: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) النحل (٨٩) وكل هذا جاء بأساليب شتى ومتنوعة مع غاية الإبداع والإحكام والإعجاز يقول الرماني في بيان تصريف المعاني: "وهذا الضرب من التصرف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهره وتدل عليه، وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة قد جاء في القرآن في غير قصة، منها: قصة موسى –عليه السلام– في سورة الأعراف، وفي طه والشعراء؛ لوجوه من الحكمة، منها: التصرف في البلاغة من غير نقصان، ومنها: تمكين العبرة والموعظة"(١). ويبين الرماني سبب كون التصريف في أعلى طبقات البلاغة فيقول: "لأن الذي قدر على أن يأتي بسورة آل عمران والذي قدر على المائدة هو الذي قدر على الإنعام، وهو الله عز وجل الذي يقدر أن يأتي بما شاء من مثل القرآن فظهور الحجاج على الكفار بأن أتى في المعنى الواحد بالدلالات المختلفة فيما هو من البلاغة في أعلى طبقة"(٢).

فموضوعات القرآن الكريم وكافة معانيه بل القصة الواحدة تتكرر وفي كل مرة تختلف صياغتها وهي مع هذا التصريف غاية في الإبداع قارة في سياقها متجانسة مع ما درجت فيه كأنها ماذكرت إلا في هذه السورة ، وهذا التصرف في

(١) النكت في إعجاز القرآن . (ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) . الرماني . ص ١٠١ . ت. د / محمد خلف الله. ود/ محمد زغلول سلام دار المعارف بمصر ط . الثالثة، ١٩٧٦م.
(٢) السابق ص ١٠٢.

الأسلوب تحدث عنه ابن أبي الإصبع في معرض حديثه عن **باب** التصرف عند الشعراء وجعله دليلا على قوة الشاعر؛ لأن الشاعر يعمد إلى المعنى فيبرزه في عدة صور تارة بلفظ الاستعارة، وطوراً بلفظ الإيجاز، وآونة بلفظ الإرداف، وحيناً بلفظ الحقيقة، ولا شبهة في أن هذا إنما يأتي من قوة الشاعر وقدرته(١)، ويخلص ابن أبي الإصبع إلى قوله: "ولذلك أتت قصص القرآن الكريم في صور شتى من البلاغة ما بين الإيجاز والإطناب واختلاف معاني الألفاظ، وشهرة ذلك تغني عن شرحه"(٢) ولعل ذلك المعنى هو الذي أوحى إلى السيوطي تسمية هذا التصرف الأسلوبي بالاقتدار ولم يخرج تعريفه له عما قاله ابن أبي الإصبع(٣).

وقد ذكر الله علة هذا التصريف والتنويع في كل آية تحدثت عنه ، فهذا التصريف جاء من أجل فقههم وعلمهم وشكرهم ورجوعهم الى الله وإكسابهم التقوى والتذكر .

وتصريف الآيات والتفنن في أدائها وتنويع أساليبها كفيل بكل هذه الثمرات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، لأنه بهذا التصريف يكون قد خاطب كافة المستويات والعقول والقرآن الكريم كان ولا يزال مأدبة للعلماء على اختلاف مشاربهم وعقائدهم ومأدبة البدوي والحضري والصغير والكبير ، يقول الشيخ الشعراوي مبينا الحكمة من هذا التصريف : " فكل أسلوب يصادف هوى في نفس أحد المستقبلين، فخطاب القرآن الأهواء كلها بكل مستوياتها، فالعالم والجاهل ومتوسط الفكر، الكل يجد في القرآن مَا يناسبه؛ لأنه يُشرِّع للجميع، للفيلسوف وللعامي، فلا بُدَّ أنْ يكون في القرآن تصريفٌ لكل ألوان الملكات ليقنع الجميع ،

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن . ابن أبي الإصبع العدواني. ص ٥٨٣. ت . د. حفني محمد شرف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي . بدون .

(٢) السابق ص ٥٨٤.

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن. السيوطي ج١ ص٢٩٤دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان . ط الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

وفي القرآن وَعْد ووعيد، فلكل منهما أهْل، ومَنْ لم يَأْتِ بالإغراء بالخير يأتي بأن ينزعه بالقوة والجبروت ..... فالتصريف يعني التحويل والتغيير بأساليب شتَّى لتناسب استقبال الأمزجة المختلفة"[١].

وحكمة أخرى لهذا التصريف وهي أن العرب كانوا على دراية تامة بالشعر وفنون القول ولم يروا شاعرا بز في كل الفنون والأغراض بل أثر عنهم أشعر العرب امرؤالقيس إذا ركب، وزهير إذا طرب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب فكل شاعر كان يقول في كل الأغراض مدحا وهجاء فخرا ورثاء وصفا وغزلا إلا أن لكل شاعر مدرسته وغرضه الذي امتاز به وشهر، والشعراء كانوا طبقات بينهم الفاضل والمفضول ، أما القرآن الكريم فلم يعرف في كل آية من آياته ولفتة من لفتاته وموضوع من موضوعاته إلا النمط المتحد العالي المحكم المعجز الدقيق البليغ ، وخص قوله تعالى : (وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد .....) بتصريف الوعيد دون تصريف الآيات أو تصريف الأمثال لمناسبة السياق السابق من حديثه عن أهوال القيامة ومصائر الخلق ومافي الآيات من جلال الله – سبحانه – وتوعده للظالمين فناسب التذكير بتصريف الوعيد قال البقاعي : "ولما كان أكثر هذه الآيات محذراً، قال: {وصرفنا} أي بما لنا من العظمة {فيه من الوعيد} أي ذكرناه مكررين له محولاً في أساليب مختلفة، وأفانين متنوعة مؤتلفة"[٢].

ولا يقدر على هذا التصريف المعجز إلا العظيم – سبحانه – ولذلك جاء فاعل التصريف وهو الله – عزوجل – مدلولا عليه بضمير الجمع وذلك تعظيما لذات الله العلية ، وإشارة إلى عظمة هذا التصريف ، فالقرآن الكريم في إنزاله عظيم وفي تصريفه عظيم فالفاعل في كل الأحوال هو العظيم – سبحانه – وعلى قدر

(١) تفسيرالشعراوي ج ١٥ ص٩٤٠٠.

(٢) نظم الدرر ج ١٢ ص ٣٥٠.

عظمته – سبحانه – وجلاله وكماله تكون عظمة أفعاله ، ومجيء فاعل التصريف بصيغة الجمع سمة ثابتة في كل آيات التصريف فالفعل إما أن يأتي بصيغة المضارع (نصرف) والفاعل مستتر تقديره (نحن) أو يأتي بصيغة الماضي مسندا إلى ضميرالجمع (صرفنا) وهذا يدل على عظمة المصرِّف وهو الله وعظمة ما يصرفه ، " والله عزَّ وجلَّ يُعَظَّمُ في الأحوال كلها، فَيَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ حَقَّ عَظَمَة اللَّه أَنْ لَا يَتَكَلَّم بِكَلِمَة يَكْرَهُها اللَّه، وَلا يَرْتَكِب مَعْصِيَة لَا يَرْضاها اللَّه، إِذْ هُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بما كسبت."[1] وهذا المعنى يسلمنا إلى ثمرة هذا إنزال القرآن الكريم عربيا وتصريف الآيات وهو قوله تعالى: " لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا " وهذه الثمرة مرتبطة بإنزال القرآن الكريم وما ارتبط به هذا الإنزال من كونه:

١–(قرآنا) فالأمي والجاهل مكلف بكل ما جاء في القرآن الكريم فمناط التكليف على العقل سواء كان قارئا أم سامعا، كما أن هذا القيد ضابط لبيان الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم، ولذلك وجد من يسمع القرآن وهو لا يعرف العربية يتأثر بالأداء الصوتي للقرآن الكريم .

٢– (عربيا) لتفهمه العرب فيقفوا على إعجازه ونظمه وخروجه عن جنس كلامهم، ولتحفظ الأمة لسانها الذي هو الطريق لفهم كتاب ربها .

٣– تصريف الوعيد. وذلك كله في حكم الجملة الواحدة لإحداث هذا الأثر.

وهذا الإنزال للقرآن بهذه الكيفية له هدفه وغايته وهو التقوى التي هي ثمرة عبادته سبحانه كما جاء في أول أمر إلهي في القرآن الكريم قال تعالى: **(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** البقرة(٢١)، ولا سبيل إلى تحقيقها إلا بهذا الكتاب العربي المبين ، ويلاحظ مجيء الفعل (يتقون) مضارعا للدلالة على حدوث التقوى وتجددها بتجدد سماع الآيات

(١) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة. إسماعيل بن محمد الأصفهاني . ج١ ص ٢٤٢ . دار الراية – السعودية ط . الثانية، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.

وتصريف الوعيد، وحذف المفعول من خصائص الأفعال التي جاءت ثمرة لتصريف الآيات كما في قوله: (**انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**)﴿٦٥ الأنعام﴾ وقوله: (**وكذلك نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ**) (الأعراف٥٨) وقوله : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا) الإسراء ٤١ وقوله : (**وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا**) الفرقان٥٠ وقوله: (**وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون**) الأحقاف ٢٧ وأرى أن تقدير المفعول في هذه الآيات يحدد الدلالة ولا يطلقها فمثلا مع الفعل (يتقون) يجوز أن يكون المحذوف لفظ الجلالة (الله) ويجوز: يتقون المحرمات وترك الواجبات[١] ،أو يتقون الكفر والمعاصي[٢] أو يتقون الشر [٣] والأولى هو حمل هذا التصرف الأسلوبي على إنزال الفعل المتعدي منزلة الفعل اللازم والغرض هو إثبات معنى الفعل للفاعل فتصريف الآيات له عظيم الأثر وقوة الأثر ؛ فهو يربي كل هذه الثمرات في النفوس فيجعل لهم فقها وعقلا يرشدهم ويأخذ بهم إلى الصواب في كل حياتهم ، ويربيهم على الشكر فلايقصرون في شكر الرب ولا في شكر العبد ، فلسانهم شاكر وأفعالهم شاكرة وكذلك في أمر التقوى فكل ما من شأنه أن يقرب المسلم من ربه – سبحانه – فعلا أو تركا فهو من تقوى الله ، فتقدير المفعول يخفت المعنى ، ويحدد الدلالة التي يصعب حصرها.

والبشرى الثانية التي جاءت بها الآية (أو يحدث لهم ذكرا) وقد ساق الرازي اعتراضا مفاده أن (أو) تأتي للمنافاة ولا منافاة بين التقوى وحدوث الذكر بل لا يصح الاتقاء إلا مع الذكر، ثم أجاب عن ذلك فجعل (أو) كما في قولهم :

(١) مفاتيح الغيب ج٢٢ ص ١٠٣ .

(٢) روح المعاني. ج٨ ص ٥٧٦.

(٣) تفسير الشعراوي ج ١٥ ص٩٤٠٠.

جالس الحسن أو ابن سيرين أي لا تكن خاليا منهما فكذا هاهنا[١] ومعنى كلامه أن (أو) تأتي هنا للإباحة ، وأرى أن هذا الكلام فيه نظر والأولى حمل (أو) هنا على أنها للجمع المطلق كالواو، قال ابن الشجري في "أماليه": أو" بمعنى واو العطف من أقوال الكوفيين، ولهم فيه احتجاجات من القرآن ومن الشعر القديم، فما احتجوا به من القرآن قوله تعالى: (لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) [طه/ ٤٤] و(عُذْرًا أَوْ نُذْرًا) [المرسلات/ ٦] و (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا)[٢] وذلك لما في كل واحد منهما من الانكفاف عن الكفر أو مجموعهما؛ لأن ذلك أبلغ في الانكفاف[٣] فنزول القرآن الكريم قرآنا عربيا وتصريف الوعيد يترتب عليه التقوى وإحداث الذكر، وذلك من أتم وأدق وجوه المناسبة؛ لأن النص في الآية على أمرين متلازمين فلم يكتف بنزول القرآن عربيا ولم ينفرد ذكر التصريف فناسب الجمع بينهما أن يأتي الجزاء من الله – عز وجل – على هذا النحو ليتناسب عظم الجزاء مع عظم المنة، ويعلل مولانا الشعراوي للجمع بين التقوى وإحداث الذكر فيقول : "ذلك لأن التكليف قسمان: قسم ينهاك عن معصية، وقسم يأمرك بطاعة، فينهاك عن شُرْب الخمر، ويأمرك بالصلاة، فهم يتقون الأول، ويُحدِث لهم ذِكْراً يوصيهم بعمل الثاني."[٤] فالآية جمعت بين التخلية (يتقون) وهي تقع أولا فتتهيأ النفس للتحلية وهي قوله تعالى: (أو يحدث لهم ذكرا) وجاء التعبير بالفعل المضارع (يحدث) ليدل على تجدد عطاءات القرآن الكريم وتصريف الوعيد وأنه يتعهد صاحبه بالذكر

(١) ينظر: مفاتيح الغيب ج٢٢ ص ١٠٣.

(٢) ينظر : الأمالي . ابن الشجري . ج٣ ص٧٣.ت . د. محمود محمد الطناحي مكتبة الخانجي، القاهرة .ط . الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩١ م

(٣) ينظر: شرح التسهيل المسمى «تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد . محب الدين الحلبي المصري . ج٧ ص ٣٤٧٥ ت . د. علي محمد فاخر وآخرون . دار السلام . القاهرة . ط . الأولى، ١٤٢٨ هـ.

(٤) تفسير الشعراوي ج ١٥ ص٩٤٠٠

والموعظة، كلما سمع أو قرأ، ولما كان المتحدث عنهم هم مناط الدعوة والمقصودين بالتذكرة قدم الجاروالمجرور (لهم) المشتمل على ضمير المدعوين، ومعنى (ذكرا): أي عظة واعتبارا، أو شرفا وأسندت التقوى إليهم؛ لأنها ملكة نفسانية تناسب الإسناد لمن قامت به، والذكر العظة الحاصلة من استماع القرآن المثبطة عن المعاصي، ولما كانت أمرا يتجدد بسبب استماعه ناسب الإسناد إليه، ووصفه بالحدوث المناسب لتجدد الألفاظ المسموعة[1] ففي إسناد الإحداث إلى ضمير القرآن الكريم مجاز عقلي علاقته السببية ، فالقرآن سبب قوي بل هو السبب الذي ليس بعده سبب في إحياء النفوس وعظتها وتقواها. وعظم العطايا وجلال الهدايا التي تحدثت عنها هذه الآية يسلم النفس السوية لشكرالله – عزوجل – والثناء عليه بما هو أهله ، فكان قوله تعالى: (فتعالى الله الملك الحق)

فالوصف (عربي) جاء هنا مع تنزيل القرآن الكريم وناسبه أن يذكر معه تصريف الوعيد الدال على اقتدار اللغة ومرونتها واتساعها واستيعابها لكل فنون القول .

<u>الموضع الثالث: في سورة الزمر</u>:

{ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } الزمر: ٢٧-٢٨

سورة الزمر سورة مكية[2] وهي في ترتيب النزول التاسعة والخمسون نزلت بعد سورة سبأ وقبل سورة غافر[3]، والآيات تتحدث عن ضرب الأمثال ومجيئها قرآنا عربيا لا عوج فيه ، ليربي فيهم الخشية والخوف من الله – عزوجل – والسورة في ترتيبها المصحفي التاسعة والثلاثون وقد جاءت بعد سورة (ص) وقبل سورة (غافر) وهي آخر سورة قبل الحواميم ، و السور الثلاث متشابهة المطلع فهي تتحدث

(١) روح المعاني ج٨ ص ٥٧٦.

(٢) البيان في عدّ آي القرآن . أبو عمرو الداني . ص ٢١٦.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ج ٢٣ص ٣١٢ .

جميعها عن القرآن الكريم ويبين السيوطي قوة التناسب وجمال الاتصال بين آخر سورة (ص) وأول الزمر– فيقول: "لا يخفى وجه اتصال أولها بآخر [ص] حيث قال في [ص] "إن هو إلا ذكر للعالمين" ثم قال هنا "تنزيل الكتاب من اللهِ" فكأنه قيل: هذا الذكر تنزيل وهذا تلاؤم شديد بحيث إنه لو أسقطت البسملة لالتأمت الآيتان كالآية الواحدة"(١).

والآيات موضوع الدراسة تتناسب مع ما جاء قبلها ومع ما جاء بعدها فقد جاءت الآيات في سياق الحديث عن جلال القرآن الكريم ، وأن الله نزله أحسن الحديث فمن أخذ به اهتدى ومن تركه ذل وانتهى قال تعالى : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٢٤ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٥ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ) (٢٦) ثم جاء قوله تعالى:(وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ)(٢٧) تتمة للتنويه بالقرآن وإرشاده، وللتعريض بتسفيه أحلام الذين كذبوا به وأعرضوا عن الاهتداء بهديه(٢). ولما أشارت الآيات موضوع الدراسة إلى ضرب الأمثال في القرآن الكريم جاء بعدها المثل الذي يؤكد على ذلك قال تعالى : (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَّجُلا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ

(١) ينظر: أسرار ترتيب القرآن .السيوطي . ص ١٢٨، ت . د/عبد القادر أحمد عطا . ط : الثانية. دار الاعتصام .

(٢) التحرير والتنوير ج ٢٣ ص ٣٩٧.

يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ) ٢٩ فكان قوله تعالى : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن ...) من قبيل التعرض إلى المقصود بعد المقدمة فالآية توطئة لهذا المثل المضروب لحال أهل الشرك وحال أهل التوحيد، وفي هذا الانتقال تخلص بديع أتبع تذكيرهم بما ضرب لهم في القرآن من كل مثل على وجه إجمال العموم استقصاء في التذكير ومعاودة للإرشاد[١]. وهذه الأمثال المضروبة جاءت كما صور القرآن الكريم : **(قرآنا عربيا غير ذي عوج)** فقوله(قرآنا) حال من القرآن في قوله تعالى : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن ...) وهي تزيد في المعنى فهذه الأمثال التي في القرآن ما نزلت إلا قرآنا لها من الإعجاز الصوتي وغير الصوتي ما يتوافر في حروف القرآن الكريم وألفاظه وجمله وتراكيبه ، وهذا القرآن (عربيا) فهذه الأمثال المضروبة ما نزلت إلا قرآنا بلغة العرب بل على النحو الذي يعرفه العرب في الاستئناس بالأمثال وعدا ووعيدا ترغيبا وترهيبا مدحا أو ذما ، فهذه الأمثال جارية على سنن العرب في كلامهم يقول الطاهر ابن عاشور : " وخصت أمثال القرآن بالذكر من بين مزايا القرآن لأجل لفت بصائرهم للتدبر في ناحية عظيمة من نواحي إعجازه وهي بلاغة أمثاله، فإن بلغاءهم كانوا يتنافسون في جودة الأمثال وإصابتها المحز من تشبيه الحالة بالحالة"[٢] .

وهذا القرآن العربي (غير ذي عوج) ومادة (ع وج) تدورحول الميل في الشئ، عاجت الرأس تعوج: انعطفت نحو شئ ، وعاج الرأس غيرها: عطفها عوجا – بالسكون – وعوج الشئ – كفرح – عوجا– والاسم العوج – بكسر العين – وهو – بفتح العين – مختص بكل مرئي بالبصر، وبكسر العين، يختص بكل ما ليس

(١) السابق. ج ٢٣ ص ٣٩٩.

(٢) التحرير والتنوير ج٢٣ ص ٣٩٧.

بمرئي كالقول والرأي[١]، فالقرآن الكريم لا عوج فيه أي لا اختلاف فيه ولا اضطراب ولا تعقيد ولا لبس ولاتناقض ولا إبهام وهو المستقيم في كل قصد[٢] فالاعوجاج، أن يأخذ الشيءُ امتداداً مُنْحنياً ملتوياً، أما الاستقامة فهي الامتداد في نفس الاتجاه، لا يميل يميناً أو شمالاً، ومعلوم أن الخطَّ المستقيم يمثل أقرب مسافة بين نقطتين، ولا تستقيم حياة الناس في الدنيا إلا إذا ساروا جميعاً على منهج مستقيم يعصمهم من التصادم في حركة الحياة. والمنهج الإلهي هو الطريق المستقيم الذي يضمن الحركة في هذه الحياة.[٣] وقد جاء نفي العوج عن القرآن العربي في آيتين : آية الزمر موضوع الدراسة وآية الكهف (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا .....) قال الزمخشري مبينا بلاغة نفي العوج في القرآن الكريم فقال: " فإن قلت: فهلا قيل: مستقيما: أو غير معوج؟ قلت: فيه فائدتان، إحداهما: نفى أن يكون فيه عوج قط، كما قال: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً والثانية: أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان"[٤]

وأرى أن آية الكهف نفت العوج وأثبتت الاستقامة (قيما) أما آية الزمر فكانت نصا في نفي العوج لذلك كان نفي العوج فيها أشد ففرق بين نفي (العوج) في قوله تعالى: (ولم يجعل له عوجا) وقوله – سبحانه –: (غير ذي عوج) فآية الكهف توقفت عند نفي العوج عن القرآن الكريم لكنها لم تتعد إلى كون القرآن الكريم في ذاته لا يقبل العوج ولا يستطيع أحد أن يحدث عوجا فيه لأنه محصن عن وقوع مثل ذلك فيه ؛ لذلك يقول الطاهر : "ووجه العدول عن وصفه بالاستقامة إلى وصفه بانتفاء العوج عنه التوسل إلى إيقاع (عوج) وهو نكرة في سياق ما هو

(١) ينظر: لسان العرب (عوج)

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم . ج ٧ص ٢٥٢. وأوضح التفاسير. د. محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب: ٥٦٤/١. المطبعة المصرية ومكتبتها السادسة، ١٣٨٣ هـ – ١٩٦٤م.

(٣) تفسير الشعراوي ج١٤ ص ٨٨٣٣.

(٤) الكشاف . الزمخشري . ج ٤ ص ١٢٥.

بمعنى النفي وهو كلمة (غير) فيفيد انتفاء جنس العوج على وجه عموم النفي، أي ليس فيه عوج قط، ولأن لفظ عوج مختص باختلال المعاني، فيكون الكلام نصا في استقامة معاني القرآن لأن الدلالة على استقامة ألفاظه ونظمه قد استفيدت من وصفه بكونه عربيا كما علمته آنفا."[1] ولأهمية وحيوية وجمال وثراء هذا الوصف (غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) توقف معه الإمام الرافعي مندهشا فقال : "وينبغي لك أن تطيل النظر في قوله تعالى: (غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) وتقف على موقع هذا الفصل من الآية، وتتأمل لفظة (العِوَج) فضل تأمل، فإنك لا تثير دفائنها البيانية إلا إذا حملتها على ما ذهبنا إليه. فتراها تصف القرآن بأنه فطرةُ هذه الفطرة العربية نفسها. وإنها لكلمة من الوصف الإلهي ترجح في موقعها بالكلام الإنساني كله"(٢) فالقرآن الكريم لا عوج في صوته ولا لفظه ولا تراكيبه ولا معانيه ولا قصصه ولا أحكامه ولا آدابه ولا تشريعاته ولا في أي وجه من وجوه إبداعه فلا يعرف القرآن إلا الإحكام والاستقامة والنبوغ والتناسق والتناسب.

ولعل مجيء (غير ذي عوج) وصفا للقرآن الكريم في سورة الزمر خاصة وقوله (لم يجعل له عوجا) في سورة الكهف ؛ لأن السورتين شغلتا بعلاج اعوجاج العقيدة عند المشركين وفي البخاري في وصف نبوة النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة: (حتى يقيم به الملة العوجاء) وهي: الحنيفية؛ المائلة عن الشرك؛ المستقيمة على التوحيد. والعرب كانت تعرف العوج في العقيدة وهذا العوج كان ولا يزال هدف الكافرين كما حكى القرآن الكريم في آيات كثيرة ، وكل حاقد على هذا الدين يبذل كل شيء ليرى العوج في هذا الدين فجاءت هذه الآية وآية الكهف لتقطع عليهم رجاءهم وترد الكيد في نحورهم وقد شغلت السورتان بإقامة الدين المستقيم وعلاج الانحراف والاعوجاج في العقيدة، والمثل الذي جاء بعد الآيات موضوع

(١) التحرير والتنوير ج٢٣ ص ٣٩٨.

٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. الرافعي . ص ٦٠.

الدراسة إنما جاء لتقرير عقيدة التوحيد قال تعالى: (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (٢٩) وهذا المعنى من توحيد الله وإصلاح العقيدة تنطق به سورة الكهف من أول كلمه فالحمد لا يكون إلا لله وهذا القرآن إنما أنزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمتحدث عنه بصفة العبودية لله قال تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ....) وقال – سبحانه – : (وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) (٥) وبذلك تظهر قوة التناسب بين نفي العوج عن القرآن الكريم وسياق وموضوعات سورتي الزمر والكهف.

وهذه الأمثال تضرب للذكرى والعبرة التي تسلم لغاية الغايات وأمنية الأمنيات وهي التقوى المعبر عنها في قوله تعالى: (لعلهم يتقون). وضرب الأمثال في قوله تعالى: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) كان الأنسب له (لعلهم يتذكرون) لأن في الأمثال عبرة بأحوال الممثل به فهي مفضية إلى التذكر، وذكر هنا (يتقون) ، لأنهم إذا تذكروا يسرت عليهم التقوى، والاتقاء أنسب بانتفاء العوج ؛ لأنه إذا استقامت معانيه واتضحت كان العمل بما يدعو إليه أيسر وذلك هو التقوى.[١] فالتذكر متقدم على الاتقاء؛ لأنه إذا تذكره وعرفه ووقف على فحواه وأحاط بمعناه، حصل الاتقاء والاحتراز[٢] وجاء مفعول التقوى محذوفا إذ تقدير المحذوف يضعف المعنى ويقيده ويحصره، ومجيء الحديث عن ضرب الأمثال بعد الحديث عن عربية القرآن الكريم فيه إشارة إلى أن السبيل إلى فهم

(١) ينظر: التحرير والتنوير ج٢٣ ص ٣٩٨.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ٤٥٠.

جمال هذه الأمثال إنما هو من خلال فهم أساليب العرب وطرائق بيانهم ومعرفة أمثالهم.

الموضع الرابع: في مطلع سورة فصلت:

{الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ} فصلت: ١– ٣

سورة فصلت سورة مكية ترتيبها النزولي الحادي والستون[١] وموضوعها الرئيس القرآن الكريم وتنزله وتفصيل آياته والتنويه بعظمته وقوة تأثيره وجلال قدره والإبانة عن كونه الذكر والكتاب العزيز الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأن هذا القرآن هو الهدى والشفاء، وهذه السورة ترتيبها المصحفي الواحد والأربعون بعد غافر وقبل الشورى وهذا الترتيب هو نفسه ترتيب النزول وقد طاب لأهل العلم بيان اللحمة الرابطة بين الحواميم جميعها وسورة الزمرفذكر السيوطي أن وجه إيلاء الحواميم السبع سورة الزمر: تآخى المطالع في الافتتاح بتنزيل الكتاب[٢] فهذه السور أسرة واحدة تشابهت مطالعها ومقاصدها وموضوعاتها فهي في حكم الأسرة الواحدة التى تضم إليها كافة أفرادها، والمناسبة ظاهرة والتلاحم والتلاقي بين خاتمة غافر ومطلع فصلت فلما ختمت غافر ببيان عاقبة الذين كذبوا الرسل واستهزؤا بهم وأن سنة الله قاضية بخسران وعذاب من كفر قال تعالى: (فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا

١) ينظر: التفسير الحديث . د/ محمد عزت دروزة ج ١ ص ١٥.

(٢) أسرار ترتيب القرآن. السيوطي . ص ١٣٠.واطلعت على كتاب العجائب للكرماني فلم أجد فيه ما ذكره السيوطي .

كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ)(٨٥) فلما كان الأمر كذلك جاء مطلع فصلت ليبين أن الله الغفور الرحيم أنزل القرآن الكريم رحمة لعباده، ومن كمال رحمته بهم نزل هذا القرآن مفصلا قرآنا عربيا ليفهموه ويعقلوه وهذا طابع آيات القرآن الكريم فإذا رهب رحم فرغب، وقد بدأت السورة بقوله تعالى: (حـم ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) والمطلع يثير في النفس الشوق واللهفة لمعرفة شأن وحال هذ الذي نزل من الرحمن الرحيم وهكذا شأن مطالع القرآن تبدع في إثارة كوامن النفس وإيقاظ العقل وإلهاب القلب فيستجمع المتلقي كل قواه لتلقي كل ما يأتي بعدها عن بصر وبصيرة.

و(حم) تأكيد على إعجاز القرآن الكريم وعلى تحدي العرب كما هو شأن الحروف المقطعة ، والأولى بنسق الكلام وبلاغته أن تكون (حم) في إعراب المبتدأ فهي من كتاب الله وهي رمز لحروف القرآن الكريم الذي منها ومن غيرها كان كتاب الله ، فهذه الحروف الدالة على السورة مبتدأ خبرها (تنزيل من الرحمن الرحيم) وإذا تأملنا النظم الكريم ، وحق المقام القائم على بيان مكانة القرآن الكريم وعظيم مصدره وجهة نزوله وجدنا أن الأنسب هو التعبير بالمصدر (تنزيل) مبالغة في هذا التنزيل ولفتا إليه،" فالوصف بالمصدر أكثر مبالغة من الوصف بالصفة، لأن الوصف بالمصدر ينبيء عن الموصوف بأنه مخلوق من الفعل الذي وصف به، وأنه معتاد منه ودائم لديه ولا ينقطع منه أبدا، وفي ذلك مبالغة أي مبالغة بخلاف الوصف بالصفة الصريحة فإنه يعرى من هذا المعنى"[١] فتنزيل القرآن الكريم ليس كأي تنزيل إنما هو تنزيل بكلمة الله القادرة وقوته المسيطرة وحيا من الله

(١) فن البلاغة: د. عبدالقادر حسين ص ٩٩. عالم الكتب. ط الثانية: ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م.

عزوجل ، فناسب ذلك التعبير عن المعني بالحدث (المصدر) المجرد من الذات والزمن والمبالغة في التنزيل وتكرار ذلك في الحواميم وغيرها خاصة في السور المكية وتنوع صيغتها بين (نزل) و(أنزل) كل ذلك راجع إلى مواجهة أهل الكفر ورد افتراءاتهم الباطلة حول القرآن الكريم ، كما أن الإلحاح على تنزيل الكتاب من لدنه – سبحانه – فيه معالجة لنفوسهم المريضة التي جبلت على العناد والمكابرة وعدم التفات واكتراث بدعواهم ، ولأن هذا التنزيل له خصوصياته التي لا يوقف على دقائق كنهها ناسب ذلك أن يكون التنزيل منكرا ، مفيدا التعظيم ولم لا يكون التنزيل عظيما وقد نزل من (الرحمن الرحيم) ؟! وهما مشتقان من الرحمة و(ال) فيهما لبيان الكمال واستغراق كل معاني الرحمة في حق الله – عزوجل– والجمع بين (الرحمن) و(الرحيم) يدل على القصد في تأكيد وثبوت هذه الرحمة حتى يطمئن الناس كل الناس إلى هذا القرآن الذي ما نزل ليشقى به أحد، إن هذين الوصفين يتكرران في مفتتح كل سورة في القرآن الكريم مع البسملة ويتكرران في الفاتحة التي لا تصح أي صلاة إلا بها ويختص تنزيل القرآن الكريم في هذه الآية بهما كل ذلك إيناسا للبشرية جمعاء وانتزاعا لكل عوامل القلق والضجر التي يبثها الشيطان في النفوس خوفا من ميلاد هذا النور الجديد ولما كانت زيادة المبني تدل على زيادة المعنى فوصف (الرحمن) أبلغ من الرحيم وإنما قدم (الرحمن) على (الرحيم) لأن "الرحمن أخص من الرحيم فتعقيب الأول بالثاني تعميم بعد خاص ولذلك كان وصف الرحمن مختصا به تعالى وكان أول إطلاقه مما خصه به القرآن على التحقيق بحيث لم يكن التوصيف به معروفا عند العرب ..... ومدلول الرحيم كون الرحمة كثيرة التعلق إذ هو من أمثلة المبالغة ولذلك كان يطلق على غير الله تعالى كما في قوله تعالى في حق رسوله (بالمؤمنين رؤف رحيم)[التوبة: ١٢٨] فليس ذكر إحدى الصفتين بمغن عن الأخرى ، وتقديم الرحمن على الرحيم؛ لأن الصيغة

الدالة على الاتصاف الذاتي أولى بالتقديم في التوصيف من الصفة الدالة على كثرة متعلقاتها"[١] وعطاءات القرآن الكريم تدلل على واسع رحمانيته – سبحانه – ففي تشريعات القرآن وأحكامه وقصصه ومواعظه وسائر آياته وكلماته وأصواته رحمة للإنس والجن والكون كله وبين الرحمن والرحيم جناس ناقص أضفى تنغيما وإيقاعا جميلا على الأسلوب، وقد لوحظ خلو المطلع من التأكيد مع أن الخطاب لقوم أنكروا القرآن وأنكروا نزوله من عند الله، ولكن لما كان ذلك هو الباطل بعينه لم يعتد به ولم ينظر إليه فنزل هذا الخبر منزلة الأخبار التي لا تنكر ولا تجحد لوضوح الأدلة وقوة البراهين القاطعة بصدق الخبر خاصة أن القرآن نزل لقوم يعلمون فما الحاجة إلى مؤكدات؟ إن النبرة هنا هادئة لينة هامسة تتسلل إلى مسارب النفس وحنايا القلب وهذا أدعى إلى التأثر والإذعان كما أن ذلك من باب تنزيل المنكر منزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره، إذ ليس له حجة ولا دليل يستند إليه في إنكاره، وهذا المنزّل من الرحمن الرحيم: **(كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا)** فمن رحمته –سبحانه– أن جاء القرآن مفصلا وقرآنا عربيا ليقوى أثره في النفوس وبذلك يكتمل للعرب كل وجوه الرحمة والتلطف والمنح والعطايا ، حتى مجيء القرآن على هذا الوجه رحمة لغير العرب لأن الإعجاز الصوتي يخترق حدود الزمان والمكان والأجناس وكم تأثر عوام العجم بمجرد سماع آيات القرآن الكريم وقد فصلت الجملة عما قبلها لأن الاتصال المعنوي قائم فالجملة بدل من قوله: (تنزيل من الرحمن الرحيم) فالفصل لكمال الاتصال "فحصل من المعنى أن التنزيل من الله كتاب، وأن صفته فصلت آياته، موسوما بكونه قرآنا عربيا، فحصل من هذا الأسلوب أن القرآن منزل من الرحمن الرحيم مفصلا عربيا"[٢].

(١) التحريروالتنوير ج ١ ص ١٧٢ وما بعدها .

(٢) التحرير والتنوير ج٢٤ص ٢٢٩ .

ومجيء (كتاب) نكرة أفاد التعظيم فالكتاب إن جاء معرفا بالألف واللام فقد دل هذا التعريف على بلوغ الكمال وإن جاء نكرة فقد جاء لينبه على التعظيم وينبه على أنه أعرف من أن يعرف، فهو ليس كأي نكرة لا تدل على شيء معين أو شائعة في أفراد جنسه لأن التعريف إن غاب لفظا فهو في كتاب الله موجود بسمته ولفظه وتراكيبه وإعجازه فكل ذلك يمتاز به كتاب الله عن غيره من الكتب، فهو في كل أحواله معجز متحدى به، فإن سقط عنه التعريف باللفظ لم يغب عنه التعريف بالذات، فهذا التنكير عميق الدلالة شأن كل تنكير في القرآن الكريم وجمال هذا التنكير هو ما عناه عبدالقاهر بقوله: (إذا أنتَ راجعتَ نفسَك وأذكيتَ حسَّك، وجدتَ لهذا التنكيرِ ... حُسْناً وروعةً ولطفَ موقعٍ لا يقادره قدرُه، وتَجِدُكَ تَعْدَمُ ذلكَ مع التعريفِ، وتخرجُ عن الأريحيةِ والأُنْس إلى خلافِهما..)[1] فالتعريف والتنكير أدوات دلالية طيعة توظف حسب احتياجات المقام ومقتضيات السياق فالكلمة ترد معرفة في سياق ثم ترد نفس الكلمة نكرة في سياق آخر وفي كل حازت أسباب الجمال والكمال؛ لأن السياق لم يطلب إلا هذه الكلمة بتلك الصياغة التي وردت بها وإلى ذلك أشار الإمام عبدالقاهر وهو يبين سلطان السياق وأثره في بناء النظم حيث قال: "ثم اعْلَمْ أنْ ليستِ المزيةُ بواجبةٍ لها في أنْفُسِها، ومِنْ حيثُ هي على الإطلاق، ولكنْ تعرضُ بسببِ المعاني والأغراضِ التي يُوضعُ لها الكلامُ، ثم بحَسَبِ موقعِ بعضِها من بعضٍ، واستعمالِ بعضِها معَ بعضٍ"[2] وهذا المعنى الذي ذكره الإمام هو تحليل وبيان وإضاءة لقول صاحب الإيضاح: (وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة فمقام التنكير يباين مقام التعريف ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد

(١) دلائل الإعجاز . ص ٢٨٨.

(٢) السابق ص ٨٧.

ومقام التقديم يباين مقام التأخير ومقام الذكر يباين مقام الحذف...)[١] وهذا الكتاب { فُصّلَتْ ءاياته} أي " ميزت لفظا بفواصلها ومقاطعها، ومبادئ السورة ونهايتها. وفصلت آياته معنى: فهذا وعد وذاك وعيد، وهذا قصص وذلك أحكام وتنظيم، وبعضها في الله وبيان قدسيته وكمال قدرته، وعجائب رحمته، وأحوال خلقه، وعظمة ملكوته، وهذه آيات في المواعظ تضطرب لها القلوب وتخضع لها الجباه، وهذه آيات في فلسفة الأخلاق الإسلامية، وبناء الأسرة وتكوين المجتمع، وماذا نقول؟ إن السكوت في هذا لبيان وبلاغة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد"[٢].

وقد جاء الفعل (فصلت) مبنيا لما لم يسم فاعله ؛ لأن الفاعل معروف لا ينازع فيه ولا يقدر عليه إلا الله – عز وجل– والغرض لفت الانتباه إلى شأن التفصيل ذاته والتركيز عليه خاصة أن السورة سميت بالاسم الذي وصف به (الكتاب) وهذا الوصف (فصلت) فيه رد على المشركين الذين اتهموا القرآن بغموضه وعدم تفصيله كما حكي القرآن الكريم عنهم: **(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ....)** ٤٤ فتفصيل الآيات الدالة على وحدانية الله – عزوجل – وطلاقة قدرته معنى مقصود ومحوري في السورة كلها .

ولما تجردت سورة فصلت لبيان تفصيل الكتاب الذي سميت السورة به ناسب ذلك أن يأتي مع (فصلت) التمدح بقوله: (قرآنا عربيا) وهذا من تفصيل الله – عزوجل – للكتاب ، والقرآن الكريم إنما أنزله الرحمن الرحيم مفصلا قرآنا عربيا : (لقوم يعلمون) أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي المبين، لا يلتبس عليهم شيء منه. فإن قلت: بم يتعلق قوله لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ؟ قلت: يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت، أى: تنزيل من الله لأجلهم أو

(١) الإيضاح: الخطيب القزويني . ص١٣. دار إحياء العلوم– بيروت . ط. الرابعة . ١٩٩٨.
(٢) التفسير الواضح ج٣ ص ٣٢٤ د/محمد محمود الحجازي.

فصلت آياته لهم ، والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده ، أى قرآنا عربيا كائنا لقوم عرب، لئلا يفرق بين الصلات والصفات.[1] وجاء المفعول محذوف لأن القصد إثبات العلم ووسائل إدراكه وتحصيله بصرف النظر عن المفعول فهو من باب تنزيل الفعل المتعدي منزلة الفعل اللازم .

والآية لم تنته بثمرات التنزيل قرآنا عربيا كما في كل آيات (قرآنا عربيا) فلم تأت مثلا لعلهم يتقون أو يعقلون وإنما الآية جاءت لتوضيح وتحديد المخاطبين بالقرآن الكريم ابتداء وهم العرب وهذا أدعى إلى امتثالهم وإيمانهم ؛ ولذلك فقوله (لقوم يعلمون) وصف يضاف لبقية أوصاف هذا التنزيل وفي ذلك إشارة إلى أن هذا التفصيل خاطب قوما يعلمون معانيه ومقاصده ، ولما تحدث القرآن عن تفصيل الكتاب في آية الأعراف ذكر الله أن هذا التفصيل على علم قال تعالى: **(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)**(٥٢) فمن أجل هذا التفصيل كان من تمام التناسب أن يكون القرآن نازلا لقوم يعلمون .

ومجيء كلمة (قوم) تدل على أن علمهم بتفصيل الآيات ليس خاصا بأحد دون غيره بل هم يتشاركون جميعا سادة وعبيدا قريشيين وغيرهم في معرفة هذا التفصيل لأن معرفتهم باللغة ودقائقها سجية فيهم وملكة وطبعا. وسورة فصلت تتطلب هذا التحديد لأن السورة سجلت عليهم إعراضهم وإصرارهم على الكفر، قال تعالى: **(فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ)** وهذا يوضح طغيانهم وقبح فعالهم فقد نزل عليهم ما هم عالمون به وبأسراره ومع ذلك عدلوا وانصرفوا عنه بل وعادوه وتقولوا على كتاب الله الأقاويل .

وهكذا جاءت الآيات لتبين شرف القرآن الكريم وأنه نزل من الرحمن الرحيم مفصلا عربيا لقوم يدركون ذلك فقابل الكافرون كل ذلك بالرفض والجحود ، فلفظ (عربي)

(١) الكشاف ج ٤ ص ١٨٤.

من عطاءاته في هذه السورة أنه تأكيد على معنى التفصيل والإيضاح والبيان التي أثبتته هذه السورة للقرآن الكريم .

الموضع الخامس: في سورة الشورى:

{وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ} الشورى: ٧- ٨

سورة الشورى سورة مكية ترتيبها النزولي الثاني والستون[١] والمصحفي الثاني والأربعون والترتيبان متماثلان فالسورة نزوليا ومصحفيا نزلت بعد فصلت وقبل الزخرف ، وكما هو شأن كل الحواميم شغلت الشورى بالحديث عن القرآن الكريم كون الله المقروء وشغلت بالحديث عن كون الله المنظور وذلك مناسب لمرحلة الدعوة المكية ، التي ركزت على تعريف العباد رب العباد .

والسورة تتناسب مع قبلها ومع ما بعدها فهي تشترك معهما في الحروف المقطعة والحديث عن القرآن الكريم وتنزله والحديث عن الكون وخلقه وصولا إلى تربية العقيدة الصحيحة في النفوس، والآيات موضوع الدراسة جاءت بعد حديث المطلع عن الوحي المنزل من الله قال تعالى: (حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ) ثم أخذت الآيات تبين دلائل القدرة الإلهية ، وأنه بحق العلي العظيم قال تعالى : (تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ

(١) ينظر: التفسير الحديث ج ١ ص١٥.

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)

ثم بين الله – عزوجل – وظيفة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأنه لا يؤاخذ ولا يلام على كفر من كفر قال تعالى : (وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) فهذه الآية بمثابة المقدمة لما سيؤمر به النبي – صلى الله عليه وسلم – من إنذار هؤلاء الضالين في قوله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ) (٧).

وقد جاءت الآية السابقة متضمنة لتشبيه اختلف في بيان المشبه به تبعا لاختلاف العلماء في تحديد المشار إليه؛ فذكر الزمخشري أن الآية معطوفة على ما قبلها وأن المشبه به هو مضمون الآية يقول – رحمه الله– : (ومثل ذلك أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها: من أنّ الله تعالى هو الرقيب عليهم، وما أنت برقيب عليهم، ولكن نذير لهم، لأنّ هذا المعنى كرره الله في كتابه في مواضع جمة،)[١] وتبعه الفخر الرازي في جعل المشبه به هو ما قبله قال الرازي : "واعلم أن كلمة (ذلك) للإشارة إلى شيء سبق ذكره فقوله: (وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا) يقتضي تشبيه وحي الله بالقرآن بشيء هاهنا قد سبق ذكره، وليس هاهنا شيء سبق ذكره يمكن تشبيه وحي القرآن به إلا قوله: (والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) [الشورى: ٦] يعني كما أوحينا إليك أنك لست حفيظا عليهم ولست وكيلا عليهم، فكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتكون نذيرا لهم"[٢].

(١) الكشاف ج ٤ ص ٢١٠.

(٢) مفاتيح الغيب ج ٢٧ص ٥٨٠.

والأولى ما ذكره البقاعي من أن المشار إليه هو الحروف المقطعة في مطلع السورة والتقدير: "{وكذلك} أي ومثل ذلك الإيحاء الذي قدمنا أنا حبوناك به من وحي الإشارة بالحروف المقطعة {أوحينا} بما لنا من العظمة مع الفرق بين كل ملبس {إليك قرآناً} جامعاً لكل حكمة {عربياً} فهو بين الخطاب واضح الصواب معجز الجناب"[١] فالمشبه الوحي المنزل قرآنا عربيا والمشبه به هو الوحي المنزل حروفا مقطعة والغرض من التشبيه هو إثبات التسوية ، فكلا الوحيين من عند الله – عزوجل – والإعجاز بهما قائم، وأن هذا القرآن من جنس هذه الحروف فيقوى الإعجاز ويشتد وقعه على نفوس أهل مكة ومن حولهم، كما أن هذا التشبيه ناظر إلى معنى جليل لفت إليه الطاهر ابن عاشور في بيانه للتشبيه في قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) حيث ذكر أن التشبيه على هذا الوجه مقصود منه المبالغة بإيهام أنه لو أراد المشبه أن يشبه هذا في غرابته لما وجد له إلا أن يشبهه بنفسه[٢] فالوحي لا يشبه إلا نفسه.

وأرى أن (وكذلك) شدت كل أجزاء السورة إلى الحروف المقطعة (حم عسق) ففي قوله تعالى: **(كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ)** التشبيه ناظر إليها ولم تحتج (كذلك) إلى (الواو) لأنها تلت الحروف المقطعة مباشرة وجاءت (الواو) في قوله تعالى: **(وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ)** وفي آخر السورة: **(وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ**

(١) نظم الدرر ج ١٧ ص ٢٤٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير . ج٢ ص١٥.

مَـا فِي ٱلسَّـمَٰوَٰتِ وَمَـا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِـيرُ ٱلۡأُمُـورُ) لتلتحم الآيات وتتصل بهذا الجذر الذي استهلت به السورة، فهذا القرآن الموحى إليك وإلى الذين من قبلك كهذه الحروف في اتحاد المنبع وهو الله – عز وجل – وهذا القرآن العربي هو من جنس (حم عسق)، وأن هذا القرآن الروح التي يحيا بها أصحاب الفطر السوية من جنس (حم عسق) وأن هذا القرآن الذي جعله الله نورا هو من جنس (حم عسق)، ومن أجل هذه المعاني اختصت الشورى بمزيد من حروف الهجاءفي مطلعها.

ودخول (الكاف) على اسم الإشارة كثير جداً في القرآن الكريم وقد عددت لها خمسة وتسعين موضعا ويذكر العلامة المطعني –عليه رحمات الله – أن (وكذلك) تأتي في القرآن الكريم على نوعين : نوع يتضح فيه أمر التشبيه. مثل: **(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِن أَمْرِنَـا)** وهذا النوع – أعنى وضوح التشبيه معها – هو الغالب في استعمالها فى القرآن الكريم. والنوع الثاني: ألا يكون أمر التشبيه فيها ظاهراً. مثل قوله تعالى: **(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾)** ويحمل معناها على التوكيد وإن صح معها تقدير التشبيه وهذا الرأي لا يخلو من الوجاهة.[١] وهذا التعبير من مبتكرات القرآن الكريم كما ذكر الطاهر بن عاشور[٢] فالتشبيه بـ(كذلك) فيه معنى التأكيد على عملية الإلحاق التي هي جوهر التشبيه ، كما أن في هذا التعبير ثراء في المعاني والدلالات، لعدم النص على طرفي التشبيه مما يجعل المعنى القرآني على مائدة البحث المستمر وهذا من خصائص التعبير القرآني .

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية. د. عبدالعظيم المطعني ج٢ ص ٢٨٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ج ٢٥ ص ٢٨.

وقد جاء تقديم الجار والمجرور (وكذلك) اعتناء واهتماما بشأن المشار إليه وهو الوحي بالحروف المقطعة في بداية السورة والتعريف بالإشارة أفاد التعظيم وبعد المنزلة وعلو المكانة، ولم لا والمشار إليه وحي من الله العزيز الحكيم ؟ والسورة لم تتحدث عن نزول القرآن الكريم وإنما كان القصد إلى بيان الطريقة التي كان ينزل بها القرآن على النبي – صلى الله عليه وسلم– كما بينت السورة الكريمة قال تعالى: **(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١)** فالتعبير بالوحي مناسب لسياق السورة ويلاحظ أن المطلع جاء بصيغة المضارع (يوحي) وهنا وفي آخر السورة (أوحينا) وإنما كان ذلك كذلك لاختلاف الغرضين؛ فقد قصد في بداية السورة بيان تجدد الوحي واستمرار نزوله تثبيتا لفؤاد النبي – صلى الله عليه وسلم– فناسبه الفعل المضارع ، ويضيف الطاهر ابن عاشور نكتة أخرى من خلال النظر إلى متعلقي الإيحاء في المطلع وهو (إليك) و(إلى الذين من قبلك) فيذكر أن المضارع أفاد استحضار صورة الإيحاء إلى الرسل حيث استبعد المشركون وقوعه فجعل كأنه مشاهد على طريقة قوله تعالى: **(الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا)**[فاطر: ٩] وقوله: ويصنع الفلك [هود: ٣٨] [(١)].

أما صيغة الماضي (أوحينا) فكان القصد منها هو ثبوت نزول هذا الوحي على النبي – صلى الله عليه وسلم – فناسبه صيغة الماضي ، لأن ما أخبر به الله في حكم الواقع وإن كان لم يقع بعد ، وهذا التصرف الأسلوبي ناسبه الالتفات من الغيبة في (يوحي) إلى التكلم بالعظمة في (أوحينا) ليتأكد معنى نزول الوحي على النبي – صلى الله عليه وسلم – في كافة الأزمنة كما أن الالتفات إلى التكلم في (أوحينا) ناظر إلى معنى الامتنان وإظهار القوة والعظمة خاصة و أن المقام في هذه الآية مقام إنذار فناسب ذلك العدول إلى ضمير العظمة في (أوحينا) لما فيه

(١) ينظر: التحرير والتنوير ج ٢٥ ص ٢٧ وما بعدها .

من جلال ومهابة إضافة إلى ما يضفيه الالتفات عامة من تجدد ، فالنفوس تستريح ويتجدد نشاطها إذا انتقل السياق من حال إلى حال وتغير أسلوب الكلام .

ولما كان النبي – صلى الله عليه وسلم – هو المقصود بالوحي وأن السورة احتشدت للرد على مزاعم أهل الشرك الباطلة خاصة في تلك المرحلة الحاسمة من ظهور الدعوة المحمدية ناسب ذلك تقديم الجار والمجرور المشتمل على ضمير النبي –صلى الله عليه وسلم– (إليك) وهذا الموحى به من الله عزوجل: (قرآنا عربيا) والقرآن العربي الذي جاء بلغتهم فيه العدل المطلق من الله – عزوجل – لأن القرآن نزل باللغة التي يحبونها ويجلونها ويفهمونها فكان الإنذار بها من قبيل إقامة الحجة عليهم فلاعذر لهم إذ لم يستجيبوا ويؤمنوا وهذا القرآن العربي هو وحده القادر على جمع كلمتهم والتأليف بين قلوبهم ولذلك جاءت الآيات لتبين علة مجيء هذا الوحي (قرآنا عربيا) في قوله تعالى: **(لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ)** و ذكر أم القرى التي سكنتها قريش بعد الحديث عن عربية القرآن الكريم لأن لهجة قريش كانت معروفة لدى العرب جميعا بحكم وجود البيت الحرام ووفود القبائل عليها فكانت لهجة قريش بمثابة اللهجة القومية والرسمية لكافة العرب وقد أكد على هذه الدلالة تخصيصها بالإنذار مع من حولها، ومجيء فعل الإنذار مضارعا يدل على تجدد هذه الدعوة المحمدية واستمرارها وأن نورها باق أبد الآبدين، والإنذار هو التخويف وأم القرى مكة وهي لا تعقل؛ لذلك جعل الرازي الكلام من باب الحذف والتقدير (لتنذر أهل أم القرى)[1] وحمل الأسلوب على جعله من باب المجاز المرسل لعلاقة المحلية أولى حيث عبربالمحل وأراد الحال فيه، وسر بلاغة هذا المجاز هو بيان قوة الإنذار وعمومه لكل أهل مكة فكأن هذا الإنذار قد أحست به مكة ناسا ونباتا وحيوانا وجمادا، ولم يذكر هنا إلا التخويف فلا ذكر للتبشير والسياق هو الذي قاد لذلك، فالسورة شغلت ببيان

(١) مفاتيح الغيب . ج٢٧ . ص ٥٨٠.

عاقبة الظالمين وما ينتظرهم يوم القيامة من غضب وعذاب شديد أليم وذل مقيم قال تعالى: (وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾) فهذه المعاني ناسبها خلوص القرآن الكريم للنذارة وحدها في هذه السورة، ومعنى آخر لاحظته وهو ارتباط الدائرة القريبة من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كعشيرته وأهل مكة ومن حولها بالإنذار قال تعالى: (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) الأنعام (٩٢) (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) الأعراف (٦٣) (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) الأعراف (١٨٤) (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) الشعراء (٢١٤) (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) يس (٦)

وإنما خصت أم القرى والعشيرة الأقربون بالإنذار؛ لأن مقابلة هؤلاء القوم دعوة النبي – صلى الله عليه وسلم– بالجحود والكفر والعناد أمر في غاية الغرابة؛ والشناعة؛ إذ إنهم أعرف الناس به وبصدقه وفضله، فهم أولى الناس به وبدعوته وبنصرته؛ ولذلك أول ما بدأ النبي – صل الله عليه وسلم– دعوته الجهرية بدأها بالإنذار والتخويف، امتثالا لهذه الأوامر الإلهية؛ لأن نفوس القوم المتغطرسة أحوج إلى التخويف وإدخال الرهبة في القلوب، فالحديث عن البشريات في هذا التوقيت خاصة قد يعطي رسالة ضعف وفتور في بداية الدعوة التي أرادها الله – عزوجل – قوية مزلزلة تؤرق مضاجع الكفر، وتنبههم بقوة إلى هذا الدين الجديد؛ لذلك كان من المناسب أن يبدأ النبي– صلى الله عليه وسلم– بقومه وعشيرته وأهله وأن يبدأهم بالترهيب لا الترغيب.

ومع أن مكة ذكرت في القرآن بأسماء كثيرة مثل بكة والبلد الأمين ومعاد والبيت وأم القرى إلا أن هذا الاسم (أم القرى) ورد مع الإنذار في آيتين قال تعالى: **(وهَـٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)** الأنعام (٩٢) وفي آية الشورى ، و لعل ذلك راجع إلى معنى جليل فإيمان (أم القرى) يعد بشرى لتمكين رسالة الإسلام في كل بقاع الدنيا، وأن أهلها هم الذين سيحملون دعوة النور إلى كل بقاع الدنيا، وأم القرى أصل القرى وهي مكة وسميت بهذا الاسم إجلالا لها لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعرب تسمي أصل كل شيء أمه حتى يقال هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان، ومن حولها من أهل البدو والحضر وأهل المدر، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم، ولأنها أعظم القرى شأنا وغيرها كالتبع لها، كما يتبع الفرع الأصل(١).

وإذا دلت الآيات على أن الإنذار لأم القرى ومن حولها، فقد جاءت آيات أخر لتدل على أَنَّ إِنْذَارَهُ عَامٌّ لِجَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ، كَقَوْلِهِ – تَعَالَى – قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا [٧ \ ١٥٨]. وَقَوْلِهِ – تَعَالَى –: **تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** [٢٥ \ ١] . ولا تعارض في ذلك ؛ "لأَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: وَمَنْ حَوْلَهَا شَامِلٌ لِجَمِيعِ الْأَرْضِ، كَمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ولَوْ سَلَّمْنَا تَسْلِيمًا جَدَلِيًّا أَنَّ قَوْلَهُ : (وَمَنْ حَوْلَهَا) لَا يَتَنَاوَلُ إِلَّا الْقَرِيبَ مِنْ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ – حَرَسَهَا اللَّهُ – كَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ مَثَلًا، فَإِنَّ الْآيَاتِ الْأُخَرَ، نَصَّتْ عَلَى

(١) ينظر : مفاتيح الغيب ج ٢٧ ص ٥٨٠ لباب التأويل في معاني التنزيل..الخازن ج ١ ص ٢٧١. ت . أ/ محمد علي شاهين. دار الكتب العلمية – بيروت ط. الأولى – ١٤١٥ هـ. و التفسير الوسيط للقرآن الكريم د/ محمد سيد طنطاوي. ج١٣ ص ١٦ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة ط.الأولى ١٩٩٨م.

الْعُمُومِ، كَقَوْلِهِ : (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)[٢٥ \ ١] . وَذِكْرُ بَعْضِ أَفْرَادِ الْعَامِّ بِحُكْمِ الْعَامِّ – لَا يُخَصِّصُهُ عِنْدَ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ، فَالْآيَةُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ كَقَوْلِهِ: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) [٢٦ \ ٢١٤] ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ إِنْذَارِ غَيْرِهِمْ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ.(١) فتخصيص أم القرى ومن حولها بالإنذار إنما هو أمر مرحلي في بداية الدعوة، لكن رسالة النبي – صلى الله عليه وسلم – لكل العالمين كما أوضحت آيات كثيرة .

والبقاعي يرى أن في الآية احتباكا، حيث حذف المفعول الثاني في قوله: (لتنذر أم القرى) والتقدير (يوم الجمع) وحذف المفعول الأول في قوله: (وتنذر يوم الجمع) والتقدير: (وتنذر أم القرى يوم الجمع) يقول البقاعي: "ولما كان مفعول {تنذر} الثاني على ما هدى إليه السياق ما عذبت به الأمم السالفة والقرون الماضية حين تمادى بهم الكفر وغلب عليهم الظلم في اتخاذهم أولياء من دون الله، عطف عليه: {وتنذر} أي أم القرى ومن حولها مع عذاب الأمم في الدنيا {يوم الجمع} أي لجميع الخلائق ببعثهم من الموت، حذف المفعول الأول من الشق الثاني،والمفعول الثاني من الأول، فالآية من الاحتباك: ذكر المنذرين أولاً دلالة على إرادتها ثانياً، وذكر المنذر به وهو يوم الجمع ثانياً دلالة على المنذر به من عذاب الأمم أولاً، ليذهب به الوهم في المحذوف كل مذهب، فيكون أهول، وذكر هذا المذكور أفخم وأوجل.)(٢).

والأولى حمل الأسلوب على الحذف ولا حاجة إلى القول بالاحتباك إذ المعنى أبلغ باستقلال الجملتين فكلا الجملتين يؤسسان إلى معنى مقصود ، ففي قوله تعالى : (لتنذر أم القرى ومن حولها) حذف المنذر به لإفادة العموم فالرسول –

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. الشيخ / محمد الأمين الشنقيطي. . ج ص . دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان عام النشر : ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥

(٢) نظم الدرر ج ١٧ ص ٢٤٩ وما بعدها .

صلى الله عليه وسلم – أنذرهم عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة ، وذكرهم بمصائر الأقوام السابقين كعاد وثمود وقد بدأهم النبي – صلى الله عليه وسلم – بعقوبات الدنيا ؛ لأنها هي الأقرب إلى تصورات عقولهم كما جاء في سورة فصلت (فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾) وعندما أنذرهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال ابتداء : (بين يدي عذاب شديد) فحذف المنذر به يتناسب مع واقع الترهيب الذي سلك فيه النبي – صلى الله عليه وسلم – مسالك شتى حسب قراءة نفسية عميقة لأحوال المدعوين .

وتنويها بشأن الإنذار بيوم الجمع وأهواله جعله مفردا بالإنذار وحذف المنذرين دلالة على العموم أيضا والتقدير : (وتنذر كل أحد يوم الجمع) فكل أحد داخل في هذا الإنذار و (يوم الجمع) وإن كان في الأصل ظرف لأحداث هذا اليوم إلا أن جعله مفعولا ثانيا للإنذار أفاد شمول وعموم الإنذار بكل ما يقع في هذا اليوم من أهوال وما ذكرته هو معنى كلام الألوسي – رحمه الله – قال : " والظاهر عليه أن حذف المفعول الثاني من الأول لإفادة العموم وإن كان حذف الأول من الثاني لذلك أيضا وتنذر كل أحد يوم الجمع"[(١)] وإنما قال رحمه الله والظاهر؛ لأنه ذكر رأي من قال بالاحتباك، ثم عاد ورجح الحذف للسر الذي ذكره[(٢)].

وفي تسميته بيوم الجمع وجوه: الأول: أن الخلائق يجمعون فيه قال تعالى: يوم يجمعكم ليوم الجمع [التغابن: ٩] فيجتمع فيه أهل السموات من أهل الأرض.

الثاني: أنه يجمع بين الأرواح والأجساد الثالث: يجمع بين كل عامل وعمله الرابع: يجمع بين الظالم والمظلوم[(٣)] وإنما جاء التعبير عن أهوال يوم القيامة بـ(يوم الجمع) دون غيره من المسميات ليتناسب مع ما جاء في السورة في قوله تعالى:

---

(١) روح المعاني . ج ١٥ ص ١٣ .

(٢) ينظر: السابق والصفحة .

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب ج ٢٧ ص ٥٨٠.

(وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (١٥)

وجاء قوله: (لا ريب فيه) وصفا لهذا اليوم والريب هو الشك وأصل الريب القلق واضطراب النفس، ولما كان الشك يلزمه اضطراب النفس وقلقها غلب عليه الريب فصار حقيقة عرفية فـ(لا) نفت جنس الريب والشك في وقوع هذا اليوم ونفي الريب راجع إلى إنكار المشركين لهذا اليوم ولذلك جاء هذا المعنى في أكثر من آية (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) آل عمران (٩) (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) آل عمران (٢٥) وفي سورة النساء (٨٧) والأنعام (١٢) والجاثية (٢٦) وكلها تنفي الريب عن هذا اليوم، فالتذكير المستمر بوقوع هذا اليوم راجع إلى إنكارهم الدائم وعقيدتهم الراسخة المتمثلة في عدم البعث للحساب بل كانوا يزعمون أن هذه الحياة يحيونها ثم يموتون ولا حساب ولا جنة ولا نار ومع أن الموقف موقف إنكار إلا أن الخبر جاء ابتدائيا كأنه ألقي إلى خالي الذكر وذلك لعدم الاعتداد بريبهم لوهن معتقدهم وسذاجته فالذي خلقهم قادر على بعثهم وحسابهم، ثم كانت المحصلة الجامعة لرسالة النبي – صلى الله عليه وسلم – وإنذاره لأم القرى ومن حولها وإنذاره البشرية يوم الجمع هو قوله تعالى : (فريق في الجنة وفريق في السعير) وهذه الجملة فصلت عما قبلها لشبه كمال الاتصال، فكأن سائلا سأل عن حال هذا الجمع فقيل: فريق في الجنة وفريق في السعير[١] وبين الجملتين مقابلة أدت دورها الدلالي في إيضاح المعنى وإبرازه فوضعت الفريقين أمام المتلقي ليكون على ذكر من أمره وليختر لنفسه ما فيه سعادته، كما أن هذه النتيجة قذفت فجأة إلى المشهد وطوت أحداثا كثيرة فالنبي – صلى الله

(١) .ينظر : التحرير والتنوير ج ٢٥ص ٣٧.

عليه وسلم– قد أنذر فمنهم من آمن ومنهم من كفر فعاشوا ما عاشوا ثم ماتوا ثم كان يوم الجمع بما فيه من أهوال وأحداث جسام وسؤال وحساب وكما كانوا فريقين في الدنيا كانوا فريقين في الآخرة ، فمنهم شقي وسعيد، وكل هذا الإيجاز للتركيز على مقصد المقاصد وغاية الغايات الفوز بالجنة والنجاة من النار، والتي كان من أجلهما أن أوحى الله – عزوجل– لنبيه هذا القرآن العربي ليقودهم إلى المصير الذي فيه سعادتهم ويبعدهم عن المصير الذي فيه شقوتهم.

الموضع السادس: مطلع سورة الزخرف .

{ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ } الزخرف: ١ – ٤

سورة الزخرف سورة مكية ترتيبها النزولي الثالث والستون[١] والمصحفي الثالث والأربعون والترتيبان متماثلان فالسورة نزوليا ومصحفيا نزلت بعد الشورى وقبل الدخان، وقد شغلت بالحديث عن القرآن الكريم في كل أجزاء السورة؛ لأن هذا القرآن هو مدار الدعوة كلها، فهو المعجزة الدالة على صدق رسالته – صلى الله عليه وسلم– والمتحدى به وكل ذلك يناسب بل ويعالج مرحلة الدعوة المكية. والتناسب ظاهر قوي بين هذه السورة وسورة الشورى مطلعا وخاتمة وما بينهما فالمطالع متشابهة في الحروف المقطعة والحديث عن القرآن الكريم كما ختمت الشورى بالحديث عن القرآن الكريم، وكيف أنه وحي وروح ونور وهداية من الله – عزوجل – فحق لهذا الكتاب أن يقسم الله – عزوجل – به

وبدأ نظم السورة الكريم بقوله تعالى: **(حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ)** والحروف المقطعة – كما مر – سر من أسرار الله – عزوجل – بها قد تحدى الله العرب ، وقد أقسم الله – عزوجل – بالكتاب تنبيها وتعظيما لشأنه وقد أقسم الله بالكتاب وبالقرآن في غير سورة من القرآن الكريم فأقسم بالكتاب في سورة الزخرف وفي سورة الدخان قال تعالى: **(حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ)** وأقسم بالقرآن في سورة يس قال تعالى: **(يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ)** وسورة ص: **(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)**(١) وسورة ق: **(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)** (١) والملاحظ أن القسم جاء في مطلع السور، وبعد حروف مقطعة، وهذا يؤكد الصلة الرابطة بين هذه الحروف والتحدي بالقرآن الكريم فهذا

(١) ينظر: التفسير الحديث . د/ محمد عزت دروزة ج ١ ص ١٥.

القر آن المكون من جنس هذه الحروف أقسم الله –عزوجل– به تعظيما وتفخيما لشأنه وتأكيدا على قوة التحدي به للعرب، والقسم بالقرآن الكريم جاء متعدد الوصف فهو (الحكيم) و(ذي الذكر) و(المجيد) أما القسم بالكتاب فلم يوصف إلا بالمبين وكل مناسب لسياقه ، فهذه الأقسام رسالة إلى المنكرين مفادها عظمة وجلال هذا الكتاب وهذا القسم مطابق لمقتضى الحال فالقوم منكرون جاحدون لا يستقر لهم طعن، فهم يصفون القرآن بالشعر و قول كاهن وأساطير الأولين وسحر ساحر وإذا لم تسعفهم كل هذه الطعون طعنوا على نزول القرآن على الرسول – صلى الله عليه وسلم – خاصة واستهزؤا به ، كما حكت السورة الكريمة قال تعالى: (أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ) (٧) بل استنكروا نزول القرآن على النبي – صلى الله عليه وسلم – قال تعالى: (بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝٢٩ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (٣١) فالقسم مناسب للسياق النظمي للسورة كما هو مناسب للسياق النزولي. والسؤال هل القسم يفيد مع قوم كافرين بالله وكافرين برسوله وكافرين بالقرآن؟

أجاب عن هذا السؤال الفخر الرازي فذكر أن العرب كانوا يتوقون الأيمان الفاجرة وكانوا يقولون إن اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك بقوله : «اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع» ثم إنهم كانوا يقولون إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصيبه من آلهتهم عذاب وهي الكواكب فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحلف بأمر الله وإنزال كلامه عليه وبأشياء مختلفة، وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأنا وأمنع مكانا فكان ذلك

يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب كما أن هذا ليس مجرد الحلف، وإنما هو دليل خرج في صورة اليمين لأن القرآن معجزة ودليل كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك فإن قيل فلم لم يذكر في صورة الدليل؟ وما الحكمة في ذكر الدليل في صورة اليمين؟ قلنا الدليل أن ذكره في صورة اليمين قد لا يقبل عليه سامع فلا يقبله فؤاده فإذا ابتدئ به على صورة اليمين واليمين لا يقع – لا سيما من العظيم– إلا على أمر عظيم والأمر العظيم تتوفر الدواعي على الإصغاء إليه فلصورة اليمين تشرئب إليه الأجسام، ولكونه دليلا شافيا يتشربه الفؤاد فيقع في السمع وينفع في القلب[١]. فالقسم في ذاته بصرف النظر عن وجه تلقي المخاطب له وتقديره لليمين، له وقعه وأثره على نفوس المشركين، والقصد هو سوق الدليل في صورة اليمين ليقع في العقول والقلوب، ففي "تخصيص القُرآن بالإقسامِ به ... تنويهٌ بشأنه وتنبيهٌ على أنه كما يشهد برسالته – صلى الله عليه وسلم– من حيث نظمُه المعجزُ المُنطوي على بدائعِ الحكم يشهدُ بها من هذه الحيثيَّةِ أيضاً لما أنَّ الاقسام بالشيء استشهاد به على تحقُّقِ مضمون الجملة القسميةِ وتقوية لثبوتِه فيكون شاهداً به ودليلاً عليه قَاطْعاً"[٢].

ووصف (الكتاب) ب(المبين) مجاز في قوة البيان ووضوحه كما مر في سورة يوسف[٣] ووصفه بالمبين وإن كان مجازا فأراه أقرب إلى عالم الحقيقة الفاعلة المؤثرة خاصة أن ختام سورة الشورى أثبت للقرآن الكريم روحا (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) ولذلك فكل أوصاف القرآن من حكيم ومبين ونحوهما هي أوصاف

(١) مفاتيح الغيب: ٢٥٢/٢٦. وقول النبي – صلى الله عليه وسلم –«اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع» رواه البيهقي عن أبي هريرة . ينظر : السنن الكبرى . البيهقي .ج١٠ ص ٦٢. ت . أ /محمد عبد القادر عطا . دار الكتب العلمية، بيروت . لبنات ط: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

(٢) إرشاد العقل السليم. أبو السعود العمادي . ج٧ ص ١٥٩.

(٣) ينظر: ص من هذا البحث .

لها حياة واستقراروتفاعل في القرآن؛ لأن هذا القرآن كلام الله الحي القيوم، ولذلك يجيء الوصف مع القرآن الكريم بلامفعول فهو مطلق عن التحديد وذلك لسعة ما يقع عليه الوصف فالقرآن الكريم مبين لكل ما يحتاج إلى إبانة والقرآن الكريم مبين في ذاته واضح الدلالة يسري في القلوب ويسري في النفوس والأعصاب من شدة وضوحه وقوة تأثيره وقد تجاوب معه الجن والإنس وحن له الجزع، وكان وصف (الكتاب) بـ(المبين) مناسب للمقسم عليه، في قوله تعالى: (إنا جعلناه قرآنا عربيا) فالقرآن الكريم عربي واضح بيّن لا غموض فيه ولا إبهام ولا لبس ؛ فلذلك كان من المناسب وصف الكتاب بالمبين، كما أن هذا الوصف مناسب لسياق الرد علي الكافرين في زعمهم أن القرآن سحر كما جاء في السورة فالكتاب المبين هو القادر على التمييز بين ما هو معجزة من الله – سبحانه – وبين ما هو سحر يؤثر كما أن هذا الوصف مناسب لسياق الموصوفات في السورة والتي لم توصف إلا بالإبانة ، كما في قوله تعالى : (وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ) (١٥) (أَوَ مَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ) (١٨) (بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ)(٢٩) (أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ) (٤٠) (وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ) (٦٢) فقد سرى هذا الوصف مع الإنسان والرسول – صلى الله عليه وسلم – ثم الضلال والشيطان ، وهذا الوصف مناسب أتم المناسبة للأمر بالاستقامة الذي تتكرر في السورة ثلاث مرات قال تعالى :

- (فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ) (٤٣)
- (وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ)(٦٢)

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ (٦٤).

فهذا الطريق المستقيم لا يستقيم إلا بهذا الهدي المبين الذي ينير بشريعته وأوامره وآدابه هذا الطريق للسالكين ، وبدون الكتاب المبين فلا صراط ولا مستقيم ولا هداية ، بل هو التخبط والحيرة والضلال كما جاء في السورة: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾(٣٦).

وهذا المعنى من الإبانة يتناسب مع ما ذكره البقاعي مقصدا للسورة قال : " ومقصودها – أي الزخرف – البشارة بإعلاء هذه الأمة بالعقل والحكمة، حتى يكونوا أعلى الأمم شأناً"(١)، فلا سبيل إلى هذا العلو في الدنيا والآخرة إلا بهذا الكتاب المبين ويناسب (الكتاب) وصف (المبين) في هذه السورة – أيضا– لأن السورة تحدثت عن فريقين: فريق اهتدى بالكتاب المبين فأورثه الله الجنة قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾(٧٢) وفريق اتبع الشيطان ولم يهتد بنور الكتاب فاستغاث بخازن النار لا للخلاص بل للهلاك من شدة ما يرى قال تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ (٧٧).

والقسم بالكتاب فيه تنبيه على شرف القرآن الكريم وفضله وتوجيه فكر المخاطبين وإيقاظه لمعرفة قدر هذا القسم؛ إذ لا يقسم الجليل إلا بما له خطره وعظمته ولا يقسم إلا على ما يريد توكيده وتوثيقه في النفوس ويزداد العجب حينما نرى أن الله أقسم بالقرآن على القرآن فلا صلة بين المقسم به (الكتاب المبين) والمقسم عليه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾(٣) لأن المقسم به والمقسم عليه جنس واحد قال الزمخشري: "أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن وجعل

(١) مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السّوَرِ. البقاعي. ج٢ ص ٤٦٥مكتبة المعارف – الرياض ط .الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م

قوله إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا جوابا للقسم وهو من الأيمان الحسنة البديعة، لتناسب القسم والمقسم عليه، وكونهما من واد واحد"[١] فهذا القسم ضرب عزيز بديع؛ "لأنه يومىء إلى أن المقسم على شأنه بلغ غاية الشرف فإذا أراد المقسم أن يقسم على ثبوت شرف له لم يجد ما هو أولى بالقسم به للتناسب بين القسم والمقسم عليه"[٢].

وقد ذكر أبو السعود أن التأكيد المفاد من القسم متوجه إلى ثمرة نزوله قرآنا عربيا يقول أبوالسعود: "**{إنا جعلناه قرآنا عَرَبِيّـاً}** جوابٌ للقسمِ لكنْ لا على أنَّ مرجعَ التأكيدِ جعلُه كذلكَ كما قيلَ بلْ ما هُو غايتُه التي يُعربُ عنها قولُه تعالى **{لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}** فإنَّها المحتاجةُ إلى التحقيقِ والتأكيدِ لكونِها منبئةً عن الاعتناءِ بأمرِهم وإتمام النعمةِ عليهم وإزاحةِ أعذارِهم أي جعلنا ذلكَ الكتابِ قُرآناً عربياً لكي تفهمُوه وتحيطُوا بما فيهِ من النظمِ الرائقِ والمعنى الفائق وتقفوا على ما يتضمنه من الشواهدِ الناطقةِ بخروجِه عن طوقِ البشرِ وتعرفُوا حقَّ النعمةِ في ذلك وتنقطعَ أعذارُكم بالكليةِ"[٣] وأقول: إن القسم بـ(الكتاب) إنما هو على عربية القرآن الكريم والأمر كما ذكرت سابقا في التمهيد[٤] إنما هو لفت إلى عظمة هذه اللغة ومكانتها فهذه الآية التي أفردت بالقسم على عربية الكتاب، لها طبيعتها الخاصة التي توجه النظر وتوجه القلب والعقل إلى هذا الوعاء الرباني الذي جعله الله على عينه من خلال هذا القسم وأيضا لم يأت القسم على الإنزال وإنما على الجعل، فدلالة (جعل) لها اعتبارها وتمايزها وهي أيضا دلالة مشعة ولافتة، وقد ذكر الزمخشري أن (جعلناه) بمعنى خلقناه ، كقوله تعالى : (وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ.)[٥] وهذا يتناسب

(١) الكشاف: ج٤ ص ٢٣٦.

(٢) التحرير والتنوير . ج ٢٥ ص ١٥٩.

(٣) إرشاد العقل السليم ج ٨ ص ٣٩.

(٤) ينظر: ص٦٣٥.

(٥) ينظر: الكشاف ج ٤ ص ٢٣٦.

مع عقيدة الزمخشري المعتزلية التي تقول بخلق القرآن وهذا لا يستقيم فعلماء الأمة على أن جعلناه بمعنى صيرناه ووضعناه وسميناه[١] وأرى أن الجعل على معناه واقع على اللغة وأن هذه اللغة إنما صنعت على عينه – سبحانه – فما أجملها وأكملها من لغة هذا حالها، إنها لغة محفوظة بحفظه فلاتضام ولا تنتهي ولا تذوب وقد تذبل لكنها لا تموت وقد تمرض لكنها لا تلبث أن تستعيد نضرتها، أما المعاني القرآنية فهي معاني تقوم بذات الله، لازمة له أزلاً وأبداً، ولا علاقة لدلالة (جعل) بها فالجعل لدلالة العبارة.

ومعلوم أن كل كلمة قرآنية مقصودة بمادتها وصيغتها لأداء المعنى المراد بحيث لا تقوم غيرها في أداء المعنى، وهذا يجعل العقل المتدبر في بحث مستمر لبيان سبب إيثار لفظ على لفظ في سياقات متشابهه فاصطفاء الكلمة القرآنية جانب عظيم من جوانب الإعجاز القرآني؛ والتعبير بالجعل في آية الزخرف: **(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)** الزخرف: ٣، ولم يقل (أنزلناه) كما في الآيات الأخرى لأن آية الزخرف كما يقول الغرناطي: "لم تبن على أخبار بل أعقبت بآي الاعتبار والتلطف في التنبيه والتذكار"[٢] أي أن القصد في (أنزلناه) إنما هو الإخبار بما جاء في القرآن الكريم من قصص وأحكام ومعاني وأخبار أما هنا فناسب ذكر (الجعل) للحديث في السورة عن خلق السماوات والأرض قال تعالى: **(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)** (الزخرف: ٩)، ومضت السورة تتحدث عن جعل الأرض مهدا وجعل فيها سبلا، وخلق الأزواج وجعل الفلك والأنعام للركوب وقد لوحظ مجيء هذا الفعل (جعل) اثنتا عشرة مرة في هذه السورة فالمادة مهيمنة على أحداث السورة فكان من المناسب التعبير بصيغة الجعل اعتناء بشأن اللسان العربي المبين، فهذا الذي وضعه الله –

(١) ينظر: البحر المحيط ج ٩ ص ٣٥٨. ونظم الدرر ج ١٧ ص ٣٧٧.

(٢) ينظر: ملاك التأويل الغرناطي ج٢ ص٢٦٦.

عزوجل – وأقسم عليه قرآن عربي، فحصل بهذا الوصف أن الكتاب المنزل على محمد –صلى الله عليه وسلم– جامع لوصفين: كونه كتابا، وكونه مقروءا على ألسنة الأمة. وهذا مما اختص به كتاب الإسلام. و(عربيا) نسبة إلى العرب، وإذ قد كان المنسوب كتابا ومقروءا فقد اقتضى أن نسبته إلى العرب نسبة الكلام واللغة إلى أهلها، أي هو مما ينطق العرب بمثل ألفاظه، وبأنواع تراكيبه والمقصود بوصف الكتاب بأنه عربي غرضان: أحدهما التنويه بالقرآن، ومدحه بأنه منسوج على منوال أفصح لغة وثانيهما: التورك على المعاندين من العرب حين لم يتأثروا بمعانيه بأنهم كمن يسمع كلاما بلغة غير لغته، وهذا تأكيد لما تضمنه الحرفان المقطعان المفتتحة بهما السورة من معنى التحدي بأن هذا كتاب بلغتكم وقد عجزتم عن الإتيان بمثله[١]. وكانت محصلة هذا الإنزل وعلته : (لعلكم تعقلون) فلا عذر لهم لعدم تفهمه وتعقله ، فهو الكتاب المبين الذي نزل بلسان العرب وهو اللسان الذي خبر العرب دقائقه وأسراره وما عقلوه لقصور في وضوح ما يتلى عليهم ، ولا لقصور في قدرة استيعابهم ، وإنما هو العناد والتكبر ذلك العناد الذي قادهم إلى هذا الزعم الباطل: (وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ) والذي دائما ماردده المشركون كما جاء في سورة ص والتي بدئت بالقسم – أيضا – قال تعالى على لسانهم : (أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ) والله أعلم حيث يجعل رسالته، وكما هو مطرد جاء الفعل المتعدي بدون مفعول ؛ لأن القصد هو تربية العقل وبصيرة التدبر فالفعل المتعدي نزل منزلة اللازم، فالإسلام دين النقل ودين العقل دين النقل الذي جعل المسح على الجورب من أعلى، ودين العقل الذي يدعو إلى التدبر في كون الله المسطور والتدبر في كونه منظرون.

وسورة الزخرف يناسبها العقل (لعلكم تعقلون) لأنه القادر على التمييز بين ما هو

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ج ٢٥ص ١٥٩.

باق ونافع ودائم لا ينقطع وبين ما هو زخرف وبهرج زائل ومتاع لا يلبث أن ينقشع؛ فمقتضيات الزخرف توجب أن يكون الخطاب للعقل خاصة أن في (لعلكم تعقلون) تعريض بعقولهم المعطلة التي شغلت السورة بإيقاظها؛ لأن هذه العقول لم تر في إنزال الغيث وإحياء الأرض بعد موتها قدرة الله على البعث، وهذه العقول العابثة هي التي جعلت لله – سبحانه – من عباده جزءا وهي التي جعلت الملائكة عباد الرحمن إناثا وجعلت القرآن سحرا، وهذه العقول هي التي تمنت نزول القرآن على رجل من القريتين عظيم، وغياب هذا العقل هو الذي سول لفرعون أن يؤله نفسه ويدلل على ذلك بأن ملك مصر له لا لأحد غيره وأنهار البلاد تجري من تحته، وهذا استخفاف بالعقول كما حكى القرآن الكريم، فالسورة يناسبها تلك الفاصلة (لعلكم تعقلون) فكل كلمة في القرآن الكريم قارة في مكانها لا يتصور غيرها في هذا المكان، وزيادة في الثناء على القرآن الكريم والتأكيد على مصدريته جاء قوله تعالى: (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) فالمطلع كله تشريف وتعظيم لهذا الكتاب وأن القسم على عربية القرآن الكريم، فيه لفت لعقول هذه الأمة ليضعوا هذه اللغة في سويداء قلوبهم كما أن في هذا الوصف (عربيا) **تعريض بغباء هؤلاء المنكرين الجاحدين الذين افتروا على القرآن الكريم ورسوله الأمي الأمين.**

<u>عود على بدء (من الإعجاز البياني في ترتيب المعاني)</u> :

هذا النوع من الإعجاز البياني في ترتيب المعاني أشار إليه شيخنا الدكتور إبراهيم الهدهد ولا أعلم أحدا سبقه إليه في هذا الفتح، وهذا النوع من الإعجاز قائم – كما ذكر شيخنا– على تتبع جريان المعنى الواحد في المصحف الشريف وتدبر تراكيب المعاني للنفاذ إلى سر ترتيبها في المصحف ، وقد خلص أستاذنا الكريم – حفظه الله– إلى أن الأخذ بهذا الباب من البحث يفضي إلى التأكيد على أن ترتيب المصحف بتوقيف من الله – عزوجل–[١] و بالتدبر في الآيات السابقة جملة لوحظ

(١) ينظر: علامات في البلاغة والنقد . د. إبراهيم الهدهد . ص ١٤٤. مكتبة وهبة .ط أول ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م.

أنها بدأت بمطلع يوسف (حم والكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وانتهت الآيات بمطلع الزخرف (حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)

ويلاحظ أن الآيات بدأت بالحديث عن الكتاب المبين وانتهت بالقسم بهذا الكتاب المبين وثمرة الإنزال وعلته في الآيتين هي (العقل) وهذا فيه إعجاز بلاغي من ناحية تناسب المعاني وتناميها وتناسلها فآية يوسف وصفت الكتاب بالوضوح وأنه بين في ذاته مبين لكل ما يحتاجه الإنسان لينعم في دنياه وأخراه ، فكان هذا المعنى هو الأساس الذي يشد كافة الآيات التي جاءت بعد إليه ، فالكتاب المبين هو الأصل لتصريف الوعيد(آية طه) وضرب الأمثال (آية الزمر) وتفصيل الآيات (آية فصلت) وإنذار أهل القرى وإنذار يوم الجمع(آية الشورى) فتنامي المعاني انطلق من الأصل ثم رد إليه ، ولكن بالقسم به وليس بالإشارة إليه (حم والكتاب المبين) فكتاب هذا شأنه وهذا إعجازه جاء فيه تصريف الوعيد على أكمل وجوه التصريف ، وضرب الأمثال على أبلغ وأعمق ما يكون ، وتفصيل الآيات على أوضح وجوه التفصيل حتى فهمه البدوي والقروي والحضري وتأثروا به وجاء إنذاره قويا مزلزلا تتخلع لهوله القلوب وكتاب هذا حاله حق لجلاله وعظمته أن يقسم به ، فكان مسك ختام الآيات أن يقسم بالكتاب على عربية القرآن الكريم .

ولأن العقل هو مناط التكليف فكانت علة الإنزال الأولى (لعلكم تعقلون) إذ هي الوعاء الذي لولاه لما أصبح لتصريف الوعيد ولا لضرب الأمثال ولا لتفصيل الآيات ولا للإنذار أي معنى أو فائدة ، وتتوقف ثمرات تصريف الوعيد وضرب الأمثال وتفصيل الآيات من حدوث التقوى والتذكروالعلم على هذا العقل ؛ ولذلك كان من جمال التناسب وإعجازه أن يبدأ بالعقل وتأكيدا على هذا المعنى بدأ به وانتهى به.

المبحث الثاني:

التعبير عن لغة القرآن الكريم باللسان ووصفه بكونه عربيا في ثلاثة مواضع

الموضع الأول: في سورة النحل: { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ } النحل: ١٠٣

سورة النحل سورة مكية ترتبها النزولي رقم سبعين نزلت بعد سورة الكهف وقبل سورة نوح[١]، وترتيبها المصحفي السادس عشر بعد الحجر وقبل الإسراء وموضوع سورة النحل هو تعداد نعم الخالق على خلقه وصولا إلى إقرار المنعم عليه بألوهية وربوبية الخالق – سبحانه – ولذلك جعل البقاعي مقصودها الدلالة على أنه تعالى تام القدرة والعلم، فاعل بالاختيار منزه عن شوائب النقص[٢] والآيات موضوع الدراسة تتناسب مع الآيات قبلها والتي تحدثت عن الاستعاذة قبل تلاوة القرآن وأن الشيطان لا سلطان له على المؤمنين، إنما سلطانه على أتباعه ولما طعنوا بوقوع التبديل في القرآن الكريم جاءهم الرد الحاسم قال تعالى: **(قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)** وفي قوله: (قل نزله روح القدس) رد على دعوى الافتراء ببيان الملك الموكل بتنزيل الوحي ومن أسمائه (جبريل) و(الروح الأمين) و(روح القدس) لأن القرآن الكريم روح من الله (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) وجبريل عليه السلام (روح) والإضافة فيه إضافة الموصوف إلى الصفة أى: الروح المقدس. ووصف بالقدس لطهارته وبركته ، وتعظم جبريل –عليه السلام– ووصفه بهذه الأوصاف إنما يرجع إلى تعظيم القرآن الكريم ، فإذا كان هذا هو شأن حامله فما بالنا بما

(١) ينظر: التفسير الحديث . ج١ ص١٦.

(٢) مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِج٢ ص٢١٤.

حمله وأنزله؟ إنه جبريل روح القدس لأن القرآن هو الروح كلها وهو الطهر والتقديس والتنزه عن كل عيب فناسب كل ذلك أن يسمى جبريل بروح القدس، وسمى روحا لمشابهته الروح الحقيقي في أن كلا منهما مادة الحياة للبشر، فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب، والروح تحيا به الأجسام.[١] ولأن الآيات وردت درءا لشبهة أثارها المشركون نصت الآيات على ما يبين أمر الوحي فبينت حامله بأشرف لفظ ثم عينت ابتداء مصدره (من ربك) واختير لفظ الربوبية المضاف إلى النبي – صلى الله عليه وسلم– ليؤنس النبي – صلى الله عليه وسلم – ويدخل على قلبه الشريف السكينة فالذي تولاك ورعاك لن يضيعك يا محمد ومن أجل هذا المعنى اختير اسم الرب لما فيه من الدلالة على العناية والتدبير.

وقوله (بِالْحَقِّ) متعلق بالإنزال والكلمة مناسبة في الرد على افترائهم وأقول: ما الفائدة من هذا القيد بعد بيان مصدر هذا الوحي؟ إن كلمة (من ربك) درأت كل افتراءاتهم الباطلة، لكن مجيء كلمة (بالحق) لها وقعها وقرارها، فالحق هو الثابت الذى لا شك فيه وهو نقيض الباطل ، والعربية قد استعملته حسيا فى الطعنة لا زيغ فيها، والمحقق من الثياب المحكم النسيج ، والحق من الإبل الذى اشتد واستحق أن يركب ، والأمر المقضى والموت، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، وكثر استعماله بمعنى الوحى ورسالات الدين وجاءت صيغة " الحق " نحو مائتين وسبع وعشرين مرة كلها فى المعنى الدينى إما مقابلة للباطل أو اسما من أسماء الله الحسنى أو للوحى والدي"[٢] فالحق هو لب هذا الدين فديننا هو دين الحق ،

---

١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم . الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر رحمه الله – الاستاذ الدكتور: محمد سيد طنطاوي. ج ٨ ص٢٣٧. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة . ط .الأولى ١٩٩٨م .

(٢) ينظر: لسان العرب " حقق " ، والتفسير البيانى للقرآن الكريم د. عائشة عبد الرحمن ج٢ ص ٨٨ .ومابعدها، دار المعارف ط الخامسة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

قال تعالى: (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ) التوبة (٣٣ ، والصف ٩ ، إن هذا القيد (بالحق) تربية عظيمة لأفراد الأمة على الحق فى القول والحق فى الأفكار والحق فى المعاملات، والحق فى قراءة القرآن ، والحق فى تدبره، لأن القرآن الكريم شرعة الحق ، النازل من الله بالحق وفى هذا القيد أيضا " بالحق " ناظر إلى تبديل آية مكان آية فهو مع هذا التبديل لا تناقض فيه ولا تضارب لأنه نزل من الحق – سبحانه – بالحق بواسطة روح القدس المنزه عن كل عيب والمنسوب إلى كل طهر على أكرم رسول هو محمد بن عبدالله الذي عرفوه قبل البعثة بالصادق الأمين فكيف يتطرق إليهم شك في رسالة النبي – صلى الله عليه وسلم –؟

ثم بينت الآيات الوظيفة التي من أجلها نزل القرآن الكريم قال تعالى: (لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ) وجاء الفعل (يثبت) مضارعا بيانا للتجدد والاستمرارية فهي وظيفة باقية ومستمرة للقرآن الكريم وهذه الصيغة المضارعة تدل على أن المسلم في احتياج مستمر إلى تعهد القرآن الكريم له، وجاء المسند معرفا بالموصولية لمجيء صلة الموصول (آمنوا) الدالة على استقرار الإيمان وتجذره في قلوب المؤمنين، وجاء التعبير عن علة النزول بالمصدر (هدى وبشرى) مبالغة في هدايته وتبشيره ففيه كل الهدى وفيه كل البشرى ، وفي قوله (للمسلمين) من باب ذكر المظهر مكان المضمر إذ كان يجوز: (وهدى وبشرى لهم) لكنه ذكر المظهر (المسلمين) ليجمع لهم بين وصفي الإيمان والإسلام الدال على استسلامهم وخضوعهم وذلهم لله رب العالمين.

ومع أن الله نزل القرآن بالحق وجعل فيه كل النفع ما هو كفيل بتثبيت القلوب وهداية النفوس وتبشير المسلمين بالجنان التي تجري من تحتها الأنهار جزاء طاعتهم وإذعانهم وتسليمهم وانقيادهم مع كل هذا يتبجح المعاندون ويقولون إن النبي –صلى الله عليه وسلم– يعلمه بشر فمجيء هذه الفرية بعد الحديث عن تنزل

القرآن بواسطة جبريل روح القدس وبيان فضل القرآن من تثبيت الإيمان وهداية المسلمين وتبشيرهم كل هذا يدل على قبحهم وضآلة عقولهم. قال تعالى: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ) (١٠٣) يقول الشيخ الشعراوي : "وقد تماحك بعض المشركين وقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كان يجلس إلى فتى عند المروة يعلمه هذه الأخبار، فنزل القول الحق يدحض هذا الافتراء: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ.... الآية) "[1] فتقولات المشركين على النبي –صلى الله عليه وسلم – كثيرة ، فقد زعموا أن غلاما روميا نصرانيا تارة ويهوديا تارة أخرى يعلم النبي – صلى الله عليه وسلم– القرآن[2] لذلك جاء الرد الحاسم والقاطع ، وقد جاء البيان عن هذه الفرية مؤكدا بأقوى أساليب التأكيد (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَر) وجعل بعض أهل العلم مرجع توكيد العلم بما يقولون إلى توكيد الوعد والوعيد لهم[3] وذكر الطاهر أن افتتاح الجملة بالتأكيد بلام القسم و" قد" يشير إلى أن خاصة المشركين كانوا يقولون ذلك لعامتهم ولا يجرون به بين المسلمين لأنه باطل مكشوف[4] وأرى أن التوكيد راجع إلى غرابة الخبر ولفت الأنظار إليه واستعظامه واستبعاده ، ولأن المشركين قد أبعدوا في ضلالهم وافترائهم جاءت صياغتهم لفريتهم (إنما يعلمه بشر) بأسلوب القصر طريقه (إنما) وهو قصر قلب يردون به على دعوى النبي – صلى الله عليه وسلم– أن هذا القرآن وحي يوحى إليه من الله ، والقرآن يحكي حالهم بدقة متناهية فقد قصروا تعليم النبي على البشرقصر صفة على موصوف، ولم يحددوا اسما ولا وصفا لهذا البشر؛ لأن المهم عندهم هو سلب

(١) تفسير الشعراوي . ج ٢ ص ١٠٦٧.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٧٢/٢٠، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥١٨/٤.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم . ج٥ ص ١٤١ والت

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ج ١٣ ص ٢٣١.

صفة الرسالة والوحي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال الآلوسى: "وإنما لم يصرح القرآن باسم من زعموا أنه يعلمه– عليه الصلاة والسلام– مع أنه أدخل في ظهور كذبهم، للإيذان بأن مدار خطئهم، ليس بنسبته صلى الله عليه وسلم إلى التعلم من شخص معين، بل من البشر كائنا من كان، مع كونه صلى الله عليه وسلم معدنا لعلوم الأولين والآخرين"[(١)] وكان أسلوب القصر طريقه (إنما) مبالغة في فريتهم حتى كأن ما يزعمون هو أمر معروف مشهور للمخاطبين، فهم إنما يذكرون بأمر ثابت معلوم ولذلك جاء الرد مباشرة بما يلقمهم الحجر قال تعالى: **(لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)** "والجملة جواب عن كلامهم فهي مستأنفة استئنافا بيانيا؛ لأن قولهم: إنما يعلمه بشر يتضمن أنه ليس منزلا من عند الله فيسأل سائل: ماذا جواب قولهم؟ فيقال: لسان الذي... إلخ"[(٢)]، ومعنى (يلحدون) يميلون والإلحاد ليس كأي إمالة إنما هو ميل عن القصد وميل عن الحق والعدل والإيمان ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا**﴾ أي يميلون عن الحق في آيات الله[(٣)]، وجاء التعبير مضارعا لاستحضار صورة الكفار وهم يرمون النبي – صلى الله عليه وسلم– بالباطل وأيضا دل الفعل المضارع على تجدد هذه المطاعن وأن كل زمن لن يخلو ممن يلحد ويطعن حتى تأخذ الأمة حذرها وتكون عل ذكر من أمرها، ومجيء الجار والمجرور (إليه) مع هذا الفعل (يلحدون) يوحي بمعنى اللجوء فهم لا يميلون فقط وإنما يلجأون إلى هذه الفرية وكأنهم قد وجدوا فيها ضالتهم، فهذا اللسان الذي يميلون القول إليه أعجمي لا يغني ولا يسمن من جوع إنه لسان أعجمي لا فصاحة

(١) روح المعاني ج٧ ص ٤٦٨.

(٢) التحرير والتنوير . ج ١٤ ص ٢٨٧.

(٣) ينظر : مقاييس اللغة ج٥ ص ٢٣٦والمعجم الاشتقاقي . د / محمد حسن جبل . ج ٤ص ١٩٦١.

فيه ولا بيان و تركيب (ع ج م) وضع في كلام العرب للإبهام والإخفاء، وضد البيان والإيضاح، ومنه قولهم: رجل أعجم وامرأة عجماء إذا كانا لا يفصحان، وعجم الذنب سمي بذلك لاستتاره واختفائه، والعجماء البهيمة لأنها لا توضح ما في نفسها، وسموا صلاتي الظهر والعصر عجماوين، لأن القراءة حاصلة فيهما بالسر لا بالجهر، ثم إن العرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بلسانهم أعجم وأعجميا. قال الفراء وأحمد ابن يحيى: الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب، والأعجمي والعجمي الذي أصله من العجم قال أبو علي الفارسي الأعجم الذي لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم(١).

والآية تنفي وقوع اللفظ الأعجمي في القرآن الكريم قال الشَّافِعِي مستدلا بهذه الآية: "فأقام الله سبحانه حجته بأن كتابه عربي، في كل آية ذكرناها، ثم أكَّد ذلك بأن نفى عنه –جل ثناؤه– كل لسان غير لسان العرب"(٢).

وذكر السيوطي اختلاف أهل العلم في وقوع الألفاظ الأعجمية في القرآن الكريم بين مانع لها البتة وبين مجوز لوقوعها لأنها ألفاظ يسيرة ليخلص السيوطي إلى قوله: "وَالصَّوَابُ عِنْدِي مَذْهَبٌ فِيهِ تَصْدِيقُ الْقَوْلَيْنِ جَمِيعًا وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْرُفَ أُصُولُهَا أَعْجَمِيَّةٌ كَمَا قَالَ الْفُقَهَاءُ، لَكِنَّهَا وَقَعَتْ لِلْعَرَبِ فَعَرَّبَتْهَا بِأَلْسِنَتِهَا وَحَوَّلَتْهَا عَنْ أَلْفَاظِ الْعَجَمِ إِلَى أَلْفَاظِهَا فَصَارَتْ عَرَبِيَّةً ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ وَقَدِ اخْتَلَطَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ فَمَنْ قَالَ إِنَّهَا عَرَبِيَّةٌ فَهُوَ صَادِقٌ، وَمَنْ قَالَ أَعْجَمِيَّةٌ فَصَادِقٌ"(٣).

وأرى أن هذه الألفظ الأعجمية التي وقعت في القرآن الكريم ضرورة عقلية وظاهرة اجتماعية؛ إذ كيف لأم القرى التي كانت لها رحلتا الشتاء والصيف والتي كان يجبى إليها ثمرات كل الدنيا وتختلط بالفرس والروم والحبش ثم لا يدخل على لغتها ألفاظ من ألفاظهم هذه الألفاظ هضمها اللسان العربي وصقلها بسنن كلامه

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن . ص ٥٤٩.

(٢) الرسالة ص ٣٤.

٣) الإتقان في علوم القرآن ج ٢ ص١٢٩.

واستعملها وأصبحت في نثرهم وشعرهم وسائر مخاطباتهم، كما أن مجيء هذه الألفاظ الأعجمية سمة أخرى من سمات الإعجاز البياني للقرآن الكريم؛ لأن هذه الألفاظ تشير إلى أن أمر الإعجاز راجع إليه – سبحانه– وأن اللغة مهما كانت فهي وعاء لما أراد الله إنزاله وأن الله لا يعجزه شيء فالمنزَّل مهما كانت لغته فهو معجز إذا أراد ا لله له ذلك، وهذا يفسر لنا سر التعبير باللسان خاصة هنا بعد الحديث عن اللسان الأعجمي ففي التعبيرباللسان تأكيد على أن القرآن الكريم جاء باللغة التي نطقت بها ألسنتهم.

وتأكيدا على عربية القرآن الكريم جاء قوله: (وهذا لسان عربي مبين) وبين هذه الجملة وجملة (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي) مقابلة وضحت المعنى وأكدت على عربية القرآن الكريم، وتعريف المسند إليه باسم الإشارة (هذا) لتعظيم اللسان وتمييزه أكمل تمييز واللسان هو اللغة والملاحظ أنه لم يذكر هذا اللفظ (اللغة) في القرآن الكريم فلم يذكرللدلالة عليها إلا لفظ (اللسان) حتى مع الحديث عن لغة الأنبياء والأقوام السابقين لم يعبر عن اللغة بهذا اللفظ وإنما كان التعبير بـ(اللسان) الذي ذكر في خمسة وعشرين موضعا إما دالا على حقيقته العضو المعروف، وإما دالا على اللغة أو دالا على الذكر الحسن قال تعالى: (**وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا**) مريم ٥٠، ولعل السر في تنحي هذا اللفظ عن ألفاظ القرآن الكريم راجع إلى اقترابه اللفظي والصوتي من الدلالة الأصلية لمادة (لغو) وارتباطها بما هو ساقط لا قيمة له، قال ابن فارس: (لَغَوَ) اللَّامُ وَالْغَيْنُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى الشَّيْءِ لَا يُعْتَدُّ بِهِ، وَالْآخَرُ عَلَى اللَّهَجِ بِالشَّيْءِ.

فَالْأَوَّلُ اللَّغْوُ: مَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ مِنْ أَوْلَادِ الْإِبِلِ فِي الدِّيَةِ يقَالُ مِنْهُ لَغَا يَلْغُو لَغْوًا. وَذَلِكَ فِي لَغْوِ الْأَيْمَانِ. وَاللَّغَا هُوَ اللَّغْوُ بِعَيْنِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {**لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ**

بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ} [البقرة: ٢٢٥]، أَيْ مَا لَمْ تَعْقِدُوهُ بِقُلُوبِكُمْ..[١] ولذلك لم ترد هذه الكلمة (اللغو) في القرآن الكريم إلا مذمومة ويكفي أن الله برأ الجنة منها قال تعالى: **(لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً)** الغاشية ١١**(لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ولا كذابا)** التبأ ٣٥ وجعل من صفات المؤمنين الإعراض عن اللغو (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) المؤمنون ٣وإذا كانت دلالة كلمة (اللغة) لا علاقة لها بما يدل عليه لفظ (اللغو) إلا أننا عند نطق لفظ (اللغة) لا نبتعد صوتيا عن منطوقها ولذلك أوثر لفظ (اللسان) للدلالة عليها، خاصة أن لفظ اللسان جاء في القرآن الكريم بمعنى حسن الصيت وبقاء الأثر، والتعبير عن اللغة باللسان من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الآلية كما أن لفظ اللسان فيه دلالة على حركية هذه اللغة ونموها ونشاطها إن التعبير عن اللغة باللسان رسالة قوية مفادها أن هذه اللغة لم ولن تموت فهي موجودة طالما أن على هذه الدنيا لسان ناطق. وهذا اللسان(عربي مبين) وبهذا الوصف تحققت المقابلة التامة بين لسان الذي يلحدون إليه وبين لسان القرآن الكريم العربي المبين .

فالنظم القرآني يستدل على كذبهم وافتآتهم استدلالا عقليا منطقيا إذ كيف يعلم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – القرآن بشر، مع أن لغة هذا الإنسان الذي زعمتم أنه يعلم الرسول –صلى الله عليه وسلم– لغة أعجمية، ولغة هذا القرآن لغة عربية فصيحة مبينة بل في أعلى درجات البلاغة والفصاحة والإبانة والتي تحداكم بها فعجزتم وأرجعتم البصر مرة ومرتين وثلاثا وأكثر إليها وفي كل مرة ينقلب إليكم البصر خاسئا وهو حسير. بل قلتم عنه: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق.

ومجيء وصف اللسان العربي بالمبين في سورة النحل مناسب تمام المناسبة ؛ لأن السورة الكريمة بينت في أكثر من آية أن القرآن نزل للبيان قال تعالى: **(لِيُبَيِّنَ لَهُمُ**

(١) مقاييس اللغة ج٥ ص ٢٥٥.

ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ)(٣٩) (بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)(٤٤) (وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(٦٤) (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)(٨٩) فالسورة الكريمة ركزت على معنى وظيفة البيان والإيضاح لآيات القرآن الكريم وبينت السورة وظيفة النبي – صلى الله عليه وسلم – وحصرتها في البلاغ المبين (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (٨٢).

كل ذلك ناسبه أن يأتي الحديث عن لغة الكتاب بهذا الوصف (المبين)، كما أن بين اللسان العربي المبين واسم السورة (النحل) مقاربة ومشابهة فهذا النحل جعل الله فيه شفاء للأبدان قال تعالى: (يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٦٩) وكذلك هذا اللسان العربي المبين فيه شفاء لكل أدواء الناس (وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) (٨٢) فكأنه جمع في السورة بين دواءين دواء هو الروح للأبدان ودواء هو الشفاء من الأسقام ليتم الله نعمه التي لا تحصى.

الموضع الثاني: في سورة الشعراء: { وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥

سورة الشعراء سورة مكية ترتيبها النزولي السابع والأربعون، نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النمل، وترتيبها المصحفي السادس والعشرون، جاءت قبل النمل وبعد الفرقان، وموضوع السورة هو موضوع السور المكية من الحديث عن القرآن الكريم وقصص السابقين والجنة ونعيمها والنار وعذابها وصولا إلى بيان أصول العقيدة السليمة التي توحد الله رب العالمين، وركزت السورة على تقوى الله – عزوجل– فهي مطلب كافة الأنبياء كما بين النظم الكريم في هذه السورة، وشغلت السورة ببيان جمال القرآن وإعجازه وثبوت نزوله من الله – عزوجل – ومفارقة بيانه لتنزلات الشياطين وشعر الشعراء بل إن قول الكهان وشعر الشعراء دليل ماض على إعجازالقرآن الكريم وأنه تنزيل من رب العالمين

والآيات موضوع الدراسة تنسجم مع موضوعات السورة كافة ، والمطلع **(طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ)** يشد كل محاور السورة إليها ويلتقي مع الخاتمة التي اهتمت "بتحقيق أمر القرآن، وأنه من عند الله، ونفي الشبه عنه وتزييف ما كانوا يتكلفونه من تفريق القول فيه بالنسبة إلى السحر والأضغاث والافتراء والشعر، الناشىء كل ذلك عن أحوال الشياطين"[١] وبداية السورة بالحروف المقطعة يتناسب مع هذه المعاني لما في هذه الحروف من استثارة العرب وتحديهم بإعجاز هذا القرآن الذي لا يستطيعون معارضته مع أنه من بيانهم وأساليبهم، بل ومن جنس حروفهم.

(١) نظم الدرر . ج١٤ ص ١٢٣.

جاءت الآيات موضوع الدراسة بعد قول الله – عزوجل–: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ) وقد كررت هاتان الآيتان بعد كل قصة ليكون المخاطبون على ذكر من أمرهم فالفئة التي اتبعت الرسول نجت وفازت والفئة الأخرى أذاقها الله ألوان العذاب، فمعاني العزة والرحمة ظاهرة في كل أحداث السورة ، ومن تجليات صفة الرحمة الإلهية تنزيل القرآن من رب العالمين قال تعالى: {وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} وجعل البقاعي هذه الآية من باب رد المقطع على المطلع[1] ويبين الطاهر وجه وبلاغة هذا الرد فيقول: "قوله: {وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .....} عود إلى ما افتتحت به السورة من التنويه بالقرآن وكونه الآية العظمى بما اقتضاه قوله: (تلك آيات الكتاب المبين) [الشعراء: ٢] كما تقدم لتختتم السورة بإطناب التنويه بالقرآن كما ابتدئت بإجمال التنويه به، والتنبيه على أنه أعظم آية اختارها الله أن تكون معجزة أفضل المرسلين فضمير (وإنه) عائد إلى معلوم من المقام بعد ذكر آيات الرسل الأولين"[2] ومعنى آخر في بلاغة رد المقطع على المطلع وهو أن السورة افتتحت بالحديث عن القرآن الكريم وأنه آيات بينات ثم تحدثت الآيات عن معجزات الأنبياء من عصا موسى – عليه السلام – وشق البحر وسفينة نوح – عليه السلام – وناقة صالح – عليه السلام – ثم تحدث النظم عن القرآن الكريم في إشارة إلى أن القرآن هو المعجزة الكبرى الخالدة وأن هذه المعجزات وإن كانت عظيمة إلا أن لها قومها ووقتها أما القرآن الكريم فهو تنزيل رب العالمين لكل العالمين إلى يوم الدين، ولما ثبت أن القرآن تنزيل منه – سبحانه – كان مقتضى الحال أن يسأل عمن أنزله فجاء قوله تعالى: {نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ} لبيان شأن من نزل بالقرآن الكريم ، يقول البقاعي : " ولما كان الحال مقتضياً لأن يقال:

(١) نظم الدرر ج١٤ ص ٩٧.

(٢) التحرير والتنوير ج ١٩ ص ١٨٨.

من أتى بهذا المقال، عن ذي الجلال؟ قال: {نزل به} أي نجوماً على سبيل التدريج من الأفق الأعلى الذي هو محل البركات"[1] فالفصل بين الجمل على رأي البقاعي لشبه كمال الاتصال، وأرى أن الأقرب إلى رحم المعنى هو أن الفصل لكمال الاتصال ، فجملة (نزل به الروح الأمين) بيان للتنزيل من رب العالمين وقد م الجار والمجرور (به) على فاعل التنزيل لاشتماله على ضمير القرآن الكريم، الذي كان من أجله هذا التكليف واعتناء وتكريما بشأن المنزل (القرآن الكريم) فهذه الأوصاف (الروح الأمين) مقصودة ليست في الدلالة على مسماها جبريل –عليه السلام– بل هي ناظرة إلى وظيفته ومنعكسة على القرآن الذي يحمله إلى قلب النبي – صلى الله عليه وسلم – فالتعبير "عن جبرائيل عليه السلام بقوله: {الروح} دلالة على أنه مادة خير، وأن الأرواح تجيء بما ينزله من الهدى، وقال: {الأمين} إشارة إلى كونه معصوماً من كل دنس، فلا يمكن منه خيانة"[2] ومعنى الأمانة مناسب لبيان عظم المسؤلية الملقاة على أمين الوحي خاصة أن السورة شغلت بنفي أن تتنزل الشياطين بالقرآن بل ترقت في نفي ذلك فالشياطين لم تتنزل بالقرآن وما ينبغي لهم ذلك ولو حاولوا ما استطاعوا كما نفت السورة أن يكون القرآن الكريم شعرا ، فناسب ذلك أن يكون القائم على أمر الوحي هو (الروح الأمين) ولأن هذا التنزيل محفوظ من الله ومكلف به جبريل الأمين كان هذا التنزيل ليس على النبي – صلى الله عليه وسلم – بل على قلبه الشريف، قال تعالى: **(عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ)** وحق لـ(على) أن تأتي هنا إن النازل هو كلام الله فالاستعلاء المفاد بحرف الجر واقع موقعه ومؤد دلالته "لأن النزول وصول من مكان عال فهو مقتض استقرار النازل على مكان، ومعنى نزول جبريل على قلب النبيء عليهما السلام: اتصاله بقوة إدراك النبيء لإلقاء الوحي الإلهي في قوته المتلقية

(١) نظم الدرر ج١٤ ص ٩٧.

(٢) السابق والصحفة.

للكلام الموحى بألفاظه، ففعل (نزل) حقيقة ، وحرف على مستعار للدلالة على التمكن مما سمي بقلب النبيء"[١].

وإنما خص (القلب) بالذكر لأنه محل الاستقبال وبه التأثر والتأثير وهو الحركة الدافعة لكل نشاطات الإنسان، وقل: إن في التعبير مجاز مرسل حيث عبر بالجزء وأريد الكل وأقول: إن الاستعمال أقوى من ذلك وأعمق من أن يحيط به فن بلاغي إن في هذا الاستعمال دلالة واضحة "إلى إسقاط الواسطة إشارة إلى أنه – صلى الله عليه وسلم– لشدة إلقائه السمع وإحضاره الحس – يصير في تمكنه منه بحيث يحفظه فلا ينسى، ويفهمه حق فهمه فلا يخفى، فدخوله إلى القلب في غاية السهولة حتى كأنه وصل إليه بغير واسطة السمع عكس ما يأتي عن المجرمين، وهكذا كل من وعى شيئاً غاية الوعي حفظه كل الحفظ، انظر إلى قوله تعالى **{ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علماً}** [طه: ١١٤] {لا تحرك به لسانك لتعجل به} [القيامة: ١٦]"[٢].

فخصوصية القرآن الكريم وجماله وخصوصية النازل به وخصوصية النبي – صلى الله عليه وسلم– وشدة تلهفه وحب تلقيه لهذا الوحي تلاشت كل وسائل الإدراك فدخل القرآن الكريم على قلب النبي – صلى الله عليه وسلم – فلا حاجة إذن إلى أذن تسمع ولا إلى عين ترى، إن القرآن الكريم ليس كأي كلام، والنبي – صلى الله عليه وسلم– ليس كأي بشر، فكان تلقيه –صلى الله عليه وسلم– ليس كأي تلقي.

والنبي – صلى الله عليه وسلم– أرسل مبشرا ونذير وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا إلا أن النظم الكريم اكتفى بهذا التكليف: (**....لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ**) لأن الإنذار يتناسب مع معاني السورة من مطلعها إلى خاتمتها قال

(١) التحرير والتنوير ج ١٩ ص ٩٠.

(٢) نظم الدرر ج١٤ ص ٩٧.

تعالى: {لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ } فالمطلع يتوعد المعرضين وتحدثت السورة عن مصائر الأقوام السابقين ، وكيف أهلكهم الله بذنوبهم ومن أجل ذلك أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بالإنذار خاصة قال تعالى: (وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ) (٢١٤) حتى ختمت السورة بهذا التهديد المزلزل: (وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ) (٢٢٧) فالإنذار أخص بغرض السورة .

وهذا الإنذار (بلسان عربي) والجار والمجرور أجاز الزخشري أن يكون متعلقا بالمنذرين، فيكون المعنى: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وأجاز أن يتعلق بنزل، فيكون المعنى: نزله باللسان العربي لتنذر به[1] وظاهر المعنى ومقصده بيان نزول القرآن باللسان العربي لتحقق غاية الإنذار، وبعد هذه الآيات جاء ما يدل على أن نزول القرآن الكريم باللسان العربي المبين قاطع لأي عذر لهم قال تعالى: {وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ}(١٩٩)"لأنه لو نزله باللسان الأعجمى، لتجافوا عنه أصلا، ولقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به"[2] كما أن تنزيل القرآن الكريم باللسان العربي مناسب لتنزل القرآن الكريم على قلب النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول الزمخشري: " فتنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على

(١) ينظر: الكشاف ج ٣ ص ٢٣٥.

(٢) السابق والصفحة.

قلبك، لأنك تفهمه ويفهمه قومك، ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفا بعدّة لغات، فإذا كلم بلغته التي لقنها أولا ، ونشأ عليها وتطبع بها، لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت، وإن كلم بغير تلك اللغة وإن كان ماهرا بمعرفتها كان نظره أولا في ألفاظها ثم في معانيها، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربى مبين"[(١)] وواقع لغة القرآن الكريم يشهد بأن هذا اللسان مبين واضح الدلالة على المعاني لذلك لم يتطرق العرب أصحاب الألسنة الحداد إلى الطعن على القرآن الكريم من هذه الجهة، وفي تنزل القرآن بهذا اللسان العربي المبين إعذار للمشركين وإقامة للحجة عليهم؛ لأن القرآن الكريم نزل بلغتهم التي كانوا يتأثرون بها شعرا ونثرا فجاءهم نظم عجيب تحداهم فعجزوا، إن محصلة الآيات كامنة في وجوب التأثر بإنذار النبي – صلى الله عليه وسلم– وعدم إعراضهم وإيمانهم ومعطيات هذا التأثر واردة في الآيات فالقرآن الكريم تنزل من الرب الذي هو أعلم بخلقه وبما يصلحهم، والذي نزل به هو الروح الأمين والقرآن الكريم هو روح الحياة، وهو معصوم عن التبديل والتحريف، وهذا التنزل إنما كان على أطهر قلب وأشرف قلب ، وأذكى قلب، قلب المصطفى – صلى الله عليه وسلم– فكلامه ودعوته خارجة من القلب بلسان المصطفي – صلى الله عليه وسلم– الذي هو أفصح لسان وهو اللسان العربي المبين الواضح الذي لا لبس فيه ولا غموض، وإذا كان الأمر كذلك فلم لم يؤمنوا ويذعنوا ؟ إنه العناد والاستكبار وعداوة النبي – صلى الله عليه وسلم – أبد الدهر.

الموضع الثالث: في سورة الأحقاف: { وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ} الأحقاف: ١٢

(١) السابق والصفحة .

سورة الأحقاف سورة مكية وترتيبها النزولي السادس والستون نزلت بعد الجاثية وقبل الذاريات[1] وترتيبها المصحفي السادس والأربعون نزلت بعد الجاثية وقبل سورة محمد ، وهي آخر الحواميم نزولا وقد تحدثت السورة عن كون الله المقروء وهو القرآن الكريم وتحدثت عن كون الله المنظور، وقد جاءت الآيات موضوع الدراسة في سياق حجاجي قوي تعلو فيه لغة التحدي والإنذار ولذلك كان تنزيل الكتاب في مطلع السورة من العزيز الحكيم وكان اسم السورة (الأحقاف) مذكرا بمصير قوم عاد وهلاكهم بالريح التي تدمر كل شيء؛ لأن الباطل في تلك الفترة من الدعوة كان له صولة وجولة فشغلت الآيات بالرد على افتراءات المشركين حول القرآن الكريم من قولهم عنه أنه سحر ساحر وكلام افتراه – النبي – صلى الله عليه وسلم– وإفك قديم وكأن هذه السورة تجمع وتلخص كل افتراءاتهم التي وردت في الحواميم وترد عليهم وتزلزلهم وتتوعدهم .

وقد جاء قوله تعالى: **(وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ)** نهاية للمقطع الأول من السورة والذي شغل بعرض أباطيل أهل الكفر وتفنيدها وقد مهدت السورة لباطلهم بقوله تعالى: **{وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ ثم أخذت الآيات تبين موقفهم من آيات الله البينات} قال تعالى: { وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}.**

فالآيات بينات وهي حق من الله –سبحانه – ومع ذلك يزعمون أنها محض تخيلات يسحر بها محمد أتباعه ، بل زادوا في ضلالهم وادعوا أن ما جاء به محمد محض افتراء قال تعالى : **(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ**

(١) ينظر: التفسير الحديث: ١/١٥.

خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ) وقد كان الرد على هذه الافتراءات المتنوعة (السحر المبين ، والافتراء وهو أبشع الكذب ، وادعائهم أن القرآن لو كان خيرا ما سبق إليه السابقون ، وقولهم عن القرآن إفك قديم) بداية من قوله تعالى : (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ) فالرسول – صلى الله عليه وسلم – ليس بدعا من الرسل وليس هو وحده الموحى إليه ، وتأكيدا على فكرة كونه ليس بدعا من الرسل وشهادة بني اسرائيل على صدقه جاء قوله تعالى: (ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة) فهذه الجملة تؤكد على أن الوحي سنة كونية وأن الله أنزل الوحي من قبل النبي –صلى الله عليه وسلم– على موسى عليه السلام وجاء تقديم المسند (ومن قبله) على المسند إليه (كتاب موسى) لأن مقصد الخبر هو وجود الوحي قبل القرآن الكريم لذلك قدم الظرف المشتمل على ضميرالقرآن الكريم اهتماما بشأن المقدم وتنبيها على الغرض من الخبر.

وجاء التعبير عن المسند إليه بقوله: (كتاب موسى) وليس (التوراة) لأن هذه الإضافة أثبتت الكتاب والنبوة فإذا وقع لموسى – عليه السلام – كتاب من الله – عزوجل – ألا يقع لرسول الله – صلى الله عليه وسلم؟، يقول الطاهر ابن عاشور: "وعبر عن التوراة بـ(كتاب موسى) بطريق الإضافة دون الاسم العلم وهو التوراة لما تؤذن به الإضافة إلى اسم موسى من التذكير بأنه كتاب أنزل على بشر كما أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم تلميحا إلى مثار نتيجة قياس القرآن على «كتاب موسى» بالمشابهة في جميع الأحوال"[(١)].

(١) التحرير والتنوير ج ٢٦ ص ٢٥.

كما أن نسق الآيات استدعى هذا التعبير ، ففي مطلع السورة كان التنزيل للكتاب (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ) وفي نفس الآية (وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا ....) ولم يأت القرآن الكريم مضافا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلم يأت كتاب محمد ولا كتاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لأن القرآن الكريم له من الخصوصية والعظمة والمكانة والأهداف ما ليس لغيره من كتب السماء مما هو معلوم ومعروف، ولا يطلق اسم الكتاب دون تخصيص إلا ويراد به القرآن الكريم ولما ذكرت التوراة باسم الكتاب أضيفت إلى موسى –عليه السلام– لأنها رسالة خاصة لزمن ومكان محددين.

وقوله: (إماما ورحمة) حالان من الكتاب " والإمام: حقيقته الشيء الذي يجعله العامل مقياسا لعمل شيء آخر ويطلق إطلاقا شائعا على القدوة قال تعالى: واجعلنا للمتقين إماما [الفرقان: ٧٤] وأصل هذا الإطلاق استعارة صارت بمنزلة الحقيقة، واستعير الإمام لكتاب موسى لأنه يرشد إلى ما يجب عمله فهو كمن يرشد ويعظ ، وموسى إمام – أيضا– بمعنى القدوة ، والرحمة: اسم مصدر لصفة الراحم وهي من صفات الإنسان فهي، رقة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه. ووصف الكتاب بها استعارة لكونه سببا في نفع المتبعين لما تضمنه من أسباب الخير في الدنيا والآخرة ، ووصف الكتاب بالمصدر مبالغة في الاستعارة، وموسى أيضا رحمة لرسالته كما وصف محمد صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين [الأنبياء: ١٠٧] " [(١)].

وأرى أن تخصيص موسى بالذكر دون عيسى – عليه السلام – لأن رسالته كانت أكمل وأشمل من رسالة عيسى – عليه السلام – فرسالة عيسى مكملة وليست مؤسسة ولذلك كان ذكر التوراة في مقام ضرب المثل بالرسالات السابقة أولى.

(١) السابق والصفحة.

وفي تخصيص الحالين: إماما ورحمة دون غيرهما من أحوال التوراة لأن هذين الحالين يقودان إلى رسالة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم– فمقتضى إمامية التوراة أن ترشد إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لأن الرسول مكتوب عندهم باسمه ووصفه ولما رآه اليهود عرفوه فمنهم من آمن به، ومنهم من أعلن عداوته أبد الدهر، ولما ذكر كتاب موسى أتبعه بالتنويه بشأن القرآن الكريم وتعظيم شأنه استكمالا لمحاجة أهل الكفر فقوله تعالى: (وهذا كتاب مصدق....) هو المقيس على كتاب موسى وأشير للكتاب تنزيلا للقرآن الكريم منزلة المحسوس المشاهد لأنه حاضر الذكر، ولأنه يجب أن يكون واقعا محسوسا ملموسا في نفسنا وكل أفعالنا .

وأول وصف لهذا الكتاب أنه (مصدق) ومعناه المخبر بصدق غيره والمصدق: المخبر بصدق غيره. "وحذف مفعول المصدق ليشمل جميع الكتب السماوية، قال تعالى: (مصدقا لما بين يديه) أي مخبر بأحقية كل المقاصد التي جاءت بها الكتب السماوية السالفة. وهذا ثناء عظيم على القرآن بأنه احتوى على كل ما في الكتب السماوية وجاء مغنيا عنها ومبينا لما فيها. والتصديق يشعر بأنه حاكم على ما اختلف فيه منها. وما حرف فهمه بها قال تعالى: (مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) [المائدة: ٤٨]"[(١)].

وأرى أن حذف المتعلق لإرادة عموم التصديق فالقرآن الكريم مصدق لكل الكتب السماوية ولكل ما هو صادق ولكل ما يتحقق في هذا الوجود من أسرار كونية أو أسرار تتعلق بالنفس البشرية فكلما تقدم العلم واتسعت مداركه فلا صدام أبدا بين ما جاء في هذا القرآن الكريم وبين ما استقر عليه العلم الحديث، بل كلما تقدم العلم وازدادت حقائق الإنسانية وجدت في القرآن الكريم كنوزا لم تكن قد عرفتها من قبل وهذا الكتاب المصدق (لسانا عربيا) أي لغته عربية وأرى أن

(١) التحرير والتنوير ج ٢٦ ص ٢٥.

المعنى قد يتم لو قيل: (وهذا كتاب مصدق عربيا) لو كان القصد الدلالة على عربية القرآن فقط وأقول: إن هذا القيد (لسانا) ذو عطاءين:

الأول: دل على أن المقصد ألفاظ القرآن الكريم وأساليبه وتراكيبه ولو جاءت كلمة (عربي) وحدها لاتسعت لتشمل اللغة وغير اللغة مما هو متصل بحياة العرب في الجاهلية ، فلم يأخذ القرآن الكريم من العرب إلا الألفاظ والتراكيب وكل ما يتعلق بسنن القول.

الثاني: أن النص على اللسان فيه دلالة على أن مضامين القرآن الكريم وأحكامه ومبادئه لكل أجناس البشر على اختلاف لغاتهم.

والتعبير عن اللغة باللسان مجاز مرسل علاقته الآلية والتمدح بعربية القرآن الكريم فيه إشارة إلى أن إعراضهم الذي دلت عليه أول السورة **(والذين كفروا عما أنذروا معرضون)** لم يكن إلا عن عناد واستكبار لأن القرآن نزل باللسان الذي برعوا فيه وعلموا دقائقه وطرائق بيانه ولما تحداهم الله – عزوجل– به عجزوا وذلوا؛ وجاء قوله تعالى : **(لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ)**(١٢) بيانا لعلة نزول الكتاب بهذا اللسان العربي ، فالقرآن الكريم ينذر الظالمين ويبشر المحسنين فبين الجملتين مقابلة وضحت وأظهرت المعنى المراد وأبرزت علة مجيء القرآن الكريم بهذا اللسان العربي، وقدمت جملة النذارة (لينذر الذين ظلموا) لأنها الأخص بسياق الآيات المنشغل بمجادلة الباطل ودحضه، وجاء الفعل (ينذر) مضارعا لإفادة التجدد والاستمرار، وهذا مناسب لواقع النفس البشرية التى تحتاج إلى الموعظة من وقت لآخر مخافة السآمة، وفي إسناد الفعل (ينذر) إلى القرآن الكريم مجاز عقلي علاقته السببية بينت قوة أثر القرآن الكريم على نفوس المنذرين، وجاء التعبير عن البشرى بصيغة المصدر وهذا التجوز في الإسناد مجاز عقلي علاقته المصدرية مبالغة في اتصاف القرآن الكريم بما يدل عليه المصدر فالقرآن الكريم هو مصدر كل بشرى، ومصدر كل فرحة ومصدر كل نعيم.

ويلاحظ أن مع الإنذار جيء بالفعل المضارع (ينذر) وجاء المسند (الذين ظلموا) فلم يقل (وينذر الظالمين) كما قال في البشرى: (وبشرى للمحسنين) لأن الظالمين تفيد الثبوت والدوام على الظلم بخلاف الفعل (ظلموا) فهو الذي جعل للإنذار معنى وإفادة، فهم بذلك يرجى نفاذ الإنذار إلى قلوبهم فيتأثروا ويؤمنوا، أما البشرى فالقصد ثبوتها ودوامها لمن ثبت وداوم على الإحسان.

فتمام النذارة وتمام البشرى مجيء القرآن الكريم مصدق وهذا لتطمئن قلوبهم وتتيقن الحق في كل نذارة وبشارة ثم مجيء القرآن بلسان عربي بين واضح فصيح ينفذ إلى القلوب ويؤثر في النفوس فلا يمنع كافرا عن الإيمان إلا الجحود والعناد.

المبحث الثالث

التعبير عن القرآن الكريم بالحكم ووصفه بكونه عربيا في موضع واحد

{ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ} (الرعد: ٣٧)

سورة الرعد سورة مدنية ترتيبها النزولي السادس والتسعون نزلت بعد سورة محمد وقبل سورة الرحمن[١] وترتيبها المصحفي الثالث عشر بعد سورة يوسف وقبل سورة إبراهيم والسورة تحمل اسم ظاهرة كونية هي (الرعد) والرعد فيه الخير والنماء والحياة وفيه العقاب والنار فالله – عزوجل – بقدرته يجعل فيه الخير ونقيضه وذاك المعنى أراه مناسبا لبداية السورة بالحروف المقطعة والحديث عن القرآن الكريم في آيات كثيرة من السورة مطلعا ومعاقد وخاتمة لأن هذا القرآن فيه الهداية والسعاد لمن أرادها وفيه العقاب والترهيب لمن ابتعد عن منهاجه وعاداه.

وقد بدأت الآيات بالحديث عن القرآن الكريم وربطه بما مضى من آيات وشرائع كانت قبله قال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) وهذا التشبيه معطوف على قوله تعالى: (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ...) والكاف بمعنى مثل والمشبه إنزال القرآن الكريم حكما عربيا والمشبه به إنزال الشرائع على الرسل السابقين ووجه الشبه بيان وجود الإنزال من الله – عزوجل – يقول أبوحيان " وَكَذَلِكَ أَيْ: مِثْلُ إِنْزَالِنَا الْكِتَابَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ، يَتَضَمَّنُ إِنْزَالَهُ الْكِتَابَ، وَهَذَا الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ هُوَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ، كَمَا أَنَّ الْكُتُبَ السَّابِقَةَ بِلِسَانِ مَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ

(١) ينظر: التفسير الحديث ج ١ ص ١٦.

لَهُمْ "[١]. وقد جاء التعبير عن القرآن الكريم بقوله : (حُكما) وهو القولِ المشتملِ على القضاء الحقِ الواضحِ الذيِ قُضي بالعلم[٢] وهو الذي" يُفَصِّلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَيَحْكُمُ"[٣] فهذه الكلمة الدالة والمعبرة والحاكمة والناطقة بما يجب أن يكون عليه حال المسلمين تجاه كتاب العدل والحق والنور والروح والعلم ، أقول: هذه الكلمة تدل على أن القرآن الكريم نزل بما فيه من أحكام تناولت شئون الفرد والأسرة والمجتمع والأمة ليحكم ويقود يقول الشيخ محمد أبو زهرة: "أي أنزلناه قرآنا عربيا، وعبر عنه بحكم؛ لأن ما اشتمل عليه هو الحكم القائم إلى يوم القيامة"[٤].

وكان من المناسب مجيء التعبير عن القرآن الكريم بالحُكم لأمرين:

الأول: خاص بالسياق النزولي حيث ناسب ذلك الفترة المدنية التي كثر فيها التشريعات والأحكام تهيئة لإقامة دولة المسلمين.

الثاني: خاص بسياق الآيات والذي سبق بالحديث عن أهل الكتاب فالقرآن الكريم ناسخ لكل شرائعهم وأحكامهم فلا حكم بعد حكمه ولا شرع بعد شرعه" ووصف الحكم الإسلامي بأنه (عربي) لأن القرآن الذي هو حجته عربي؛ ولأن الرسول الذي بعث به عربي؛ ولأنه من سلالة إبراهيم أبي العرب، ولم يكن من سلالة إسحاق، بل من سلالة إسماعيل ضئضئي العرب. وليس معنى ذلك أنه مقصور حكمه على العرب فتلك فرية، إنما معناه في الحدود التي ذكرناها؛ لأن القرآن شريعته عامة للناس كافة، لَا فرق بين عربي وأعجمي ... والعربية صفة الشريعة وإن كانت عامة في تطبيقها؛ وذلك لأن الشريعة نزلت، واختار الله تعالى نبيه من بينهم، **(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...)** وذلك لأن العرب من بين الأمم كانوا أعرف

---

(١) البحر المحيط ج ٦ ص ٣٩٧

(٢) مفردات القرآن – نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية الشيخ: عبد الحميد الفراهي الهندي. ص ١٧٨ت. د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي . دار الغرب الإسلامي . ط. الأولى، ٢٠٠٢ م

(٣) البحر المحيط ج ٦ ص ٣٩٧.

(٤) زهرة التفاسير ج٨ ص ٣٩٦٤.

الناس بالله فهم كما ذكرنا في عدة من كتاباتنا كانوا يؤمنون بأن الله خالق السماوات والأرض ومن فيهن، ويؤمنون بأنه واحد في ذاته وصفاته، ولكنهم كانوا في العبادة يشركون معه الأوثان، وغيرهم من الأمم التي عاصرت مبدأ الإسلام ما كانت فيها معرفة الله تعالى تلك المعرفة فكانت جديرة بأن تكون أرض الدين الذي يدعو إلى التوحيد المطلق، إذ كانت فيه بذوره، فكان عمل محمد – صلى الله عليه وسلم– تقويم سوقه"(١).

وفي ذكر (عربيا) تعريض بموقف المشركين المعاند فحين كان أهل من الكتاب يفرحون بما نزل من القرآن وجدنا المشركين الذي نزل القرآن بلسانهم وعلى رسول من أنفسهم ومع ذلك وقفوا موقفا ما كان لعقولهم أن تقودهم إليه لأن الله امتن عليهم فنزل القرآن بلسانهم فكان عليهم أن يفرحوا كما فرح أهل من الكتاب، مع أن القرآن لم ينزل على أحد منهم ولا بلسانهم بل جاء ناسخا لأحكامهم وشرائعهم، كما أن وصف هذا الحكم بكونه (عربيا) فيه إعجاز فوق إعجازه فلا قيمة لأحكام وقوانين خارجة عن هذا الدستور القرآني إن هذا الوصف (عربي) تحصين للأحكام دال على أن الأمة أحكامها من هذا القرآن الكريم عربية لا شرقية ولا غربية ولا فرنسية.

وهل معنى كون القرآن الكريم حكما عربيا أن يكون الجن وغير العرب ليسوا ملزمين بتكليفات القرآن وأحكامه ؟! أورد ذلك الرازي المقريء وأجاب عنه قال : " فإن قِيلَ: إن القرآن وإن خوطب بِهِ العرب ونزل بلسانهم، فقد لزم حكم الثقلين كافة عربا وعجما، فهل لزم العجم من حفظه عَلَى أي وجه كان من الوجوب، أو الندب، أو الاستحباب عَلَى الأعيان، أو الكفاية كَمَا لزم العرب؟ فالجواب: نعم، وذَلِكَ لأنهم محمولون عَلَى حكمهم لقوله تَعَالَى: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا} [الرعد: ٣٧...] الآية، وكذلك من فارق من العرب حكم الأميين لتعلمه الكتابة

(١) زهرة التفاسير ج٨ ص ٣٩٦٤.

والاستنباط، ومن سكن منهم الأمصار والأرياف ، فإنهم فِي حكم العرب العاربة الأمية فِي حفظ القرآن وتحفظه، لأن الحكم فِي ظهوره لعلة لا يزول بزوالها إلا على صفة، ولم يسقط الوعيد جملة عمن تعلم شيئا منه ثُمَّ نسيه إلَّا عَمن رحمه الله"[١].

فالحكم معنى ومبنى زمانا ومكانا يجب أن يكون من هذا القرآن العربي فلا يصلح العرب إلا الحكم العربي ولذلك جاء بعد هذا البيان التحذير من اتباع الأهواء فأي حكم خارج عن هذا القرآن الكريم فهو هوى يعاقب عليه الله – عزوجل – قال تعالى : (**وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ**) والخطاب وإن كان للنبي – صلى الله عليه وسلم – إلا أن المراد به أمته يقول الشوكاني: "وَالْخِطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْرِيضٌ لِأُمَّتِهِ"[٢] ومجيء الأسلوب على هذا النسق "من باب الإلهاب والتهييج، والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه، وأن لا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة، وإلا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدّة الشكيمة بمكان"[٣] – وكيف يتبع النبي – صلى الله عليه وسلم – أهواء الذين كفروا وهو لم يتبع أهواءهم قبل البعثة فهو في حفظ الله وكنفه قبل البعثة وبعدها ؟! إن الخطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم– ابتداء لتقتدي به الأمة ولتكن على حذر تام من اتباع أهواء اليهود والنصارى فالنبي – صلى الله عليه وسلم – وهو من هو يحذر أشد تحذير لتكون أمته على ذكر من أمرها ولتأخذ الحيطة لنفسها فالتحذير" للأمة

---

(١) فضائل القرآن وتلاوته– الإمام: أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الرازي المقرىء ص ٤٩ . ت . د. عامر حسن صبري . دار البشائر الإسلامية . ط . الأولى، ١٤١٥ هـ – ٦,٥٤١.٩٩ أقدام.

(٢) فتح القدير ج ٣ ص ١٠٥.

(٣) الكشاف ج ٢ ص٥٣٤.

في شخص النبي – صلى الله عليه وسلم –" [١] وقد اجتمع في الأسلوب القسم مع الشرط تأكيدا على حصول الجواب إذا وقعت جملة الشرط ، فاللام في قوله تعالى: (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ) هي لام موطئة للقسم، وما جاء بعد ذلك جواب القسم الذي سد مسد جواب الشرط؛ لأنه إذا اجتمع الشرط والقسم يكون جواب القسم أولى وأجدر، ويكون دالا على جواب الشرط، لأن الغرض والقصد هو تأكيد الحكم، وهو عدم وجود النصير وعدم الوقاية من عذاب الله فعلة مجئ القسم مع الشرط تتضح من معرفة الغرض من الشرط " فالغرض منه التعليق الذي يحوطه الشك في أغلب الأحيان، لأن السبب قد يقع وقد لا يقع فهو موسوم بالاحتمالية التي لا تفارقه، لذلك جئ بالقسم لإزالة ذلك الشك ورفع تلك الاحتمالية إلي التوكيد"[٢] فالأساس الذي يقوم عليه القسم هو التوكيد والتحقيق، والذي يقوم عليه الشرط هو الشك والاحتمال في أغلب الأحيان، والمقام قد يستدعي قسما يؤكد شدة التلازم بين جملة الشرط وجملة الجواب خاصة أن الترهيب يتعلق بأمر خطير من شأنه ضياع الدين.

وقد جاء الشرط بـ(إن) لأنه وقع على سبيل الفرض والتقدير فالاتباع مشكوك في وقوعه، والْهَوَى: ميل النفس إلى الشهوة وسمّي بذلك لأنّه يَهْوِي بصاحبه في الدّنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى الهَاوِيَةِ وجاء بلفظ الجمع تنبيها على أنّ لكلّ واحد هوى غير هوى الآخر، ثم هوى كلّ واحد لا يتناهى، فإذا اتّباع أهوائهم نهاية الضّلال والحيرة[٣]. فالهوى في ذاته قبيح مذموم ولا يورد صاحبه إلا المهالك ويزداد قبحه ويعظم إن كان هذا الهوى بعد اليقين الثابت وهو قوله تعالى: **(بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ)** والذي ألاحظه أن التحذير من اتباع الهوى في مثل هذه

(١) زهرة التفاسير ج ٨ ص ٣٩٦٤.

(٢) أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط في رحاب القرآن الكريم أ / علي عون صـ٢٤٤

(٣) ينظر : المفردات في غريب القرآن ص ٨٤٩.

الآيات جاء في القرآن الكريم بعد الحديث عن اليهود والنصارى قال تعالى :(وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ) الرعد (٣٦) وكما في سورة البقرة الآيات: ١٢٠ و ١٤٥ والمائدة الآيات: ٤٨ و ٤٩ فكل هذه الآيات حذرت من اتباع الهوى بعد الحديث عن أهل الكتاب؛ لأن مقاومة هؤلاء للإسلام تأخذ صورا غير الذي نراه عند عرب الجاهلية فهم قادرون على تحريف الكلم عن مواضعه وإلقاء الشبهات والحديث عن اتباع الأهواء والتحذير منه وذكر مجيء العلم بعد الحديث عن أهل الكتاب فيه دلالات:

١- أن ما عند هؤلاء ليس التوراة والإنجيل اللذين نزلا على موسى وعسى –عليهما السلام – وإنما قد دخلهما التحريف والتبديل والنقص تبعا لأهوائهم الضالة.

٢- أن الإسلام قرآنا وسنة في مواجهة هؤلاء هو العلم الثابت واليقين الحق والنور المبين القادر على مواجهتهم ، وحماية الأمة من شرورهم.

وقد جاء التعبير بالفعل (جاء) دون (أتى) لما في التعبير به من قوة تناسب المواجهة بين القرآن الكريم وأصحاب الأهواء الفاسدة، وجاء التعبير عن رسالة الإسلام قاطبة ب(العلم) لأنها رسالة تخاطب العقل والقلب والوجدان والنفس، بعد أن استحالت التوراة والإنجيل على يد الأتباع والأشياع إلى ترانيم وقصص وعقائد لا تحترم العقل ولا تجاريه بل سرعان ما يتكشف زيفها وتناقضها .

ولما كان اتباع الهوى بعد معرفة الحق ظلم عظيم جاء جواب الشرط مزلزلا ليجتث هذا المرض الخطير من نفوس المسلمين قال تعالى: (مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ) وجاء النفي على أتم ما يكون فالنفي ب(ما) استغرق كل ولي وجاء تقديم قوله (من الله) على الولي والواقي ؛ لأن القصد ليس نفي الولي والواقي وإنما نفي أن يكون هناك من يمنع ويحول دون عقاب الله – عزوجل – فبدأ بذلك، ومعنى الولي القريب والحليف وجاءت (من) في قوله (من ولي) لتؤكد نفي الأولياء

وتجتث وجودهم فلا قليل له من الأولياء ولا كثير ومن أجل هذا التأكيد جاءت (لا) النافية ليكون في جواب الشرط أداتا نفي تأكد واتسع النفي بهما، وتأكيدا على أن من اتبع الهوى لا مانع له من عقاب الله جاء نفي الواقي بعد نفي الولي؛ لأن الإنسان قد لا يجد من ينصره ويتحالف معه ولكن قد يجد من يقيه ويحميه فجاء هذا النفي (ولا واق) لينفي عنه أي سند أو إعانة، ويلاحظ أن جواب الشرط جاء بنفي الولي والواقي الذي يقيه الشرور ولم يأت مثلا (فإن لك جهنم) أو لتكونن من الخاسرين) بل الجواب في سورة البقرة **(مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)** وفي سورة الرعد **(مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ)** وذلك لأن الآيات جاءت في معرض الحديث عن اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم على الحق وأنهم أبناء الله وأحباؤه فجاء التخويف بذلك لإثبات باطلهم وأنهم عاجزون عن نصرة أنفسهم فكيف ينصرون غيرهم؟! فمجيء التحذير من اتباع الهوى بعد الحديث عن نزول القرآن الكريم حكما عربيا دل على أن كل حكم خارج عن القرآن الكريم فهو محض اتباع الهوى.

المبحث الرابع

نفي العجمة عن القرآن الكريم في موضع واحد

{وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ} فصلت: ٤٤

سبق أن توقف البحث مع سورة فصلت مبينا موضوعها الرئيس وتناسبها في السياقين النزولي والمصحفي[١] والآية موضوع الدراسة حلقة من حلقات السورة الكريمة في التنويه بشأن القرآن الكريم ورد الأباطيل عنه وقد جاءت الآية في معرض الرد على الكافرين وبيان عنادهم قال تعالى : { إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾}

ثم جاء قوله تعالى: { وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾} والآية ترد إلى المطلع وتبين أن الأمر ليس أمر لسان ؛ لأنهم ما كانوا يطلبون الحق وما بحثوا عنه ، وإنما هو أمر كفر وعناد لأنهم يتبعون أهواءهم "فمقصدهم من هذه الشبهة الداحضة، إنما هو إنكار الإيمان به سواء أنزل بلغة العرب أم بلغة العجم

(١) ينظر : ص من هذا البحث.

فهم عند نزوله عربيا قالوا من بين ما قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، ولو نزل بلسان أعجمى، لاعترضوا وقالوا: هلا نزل بلسان عربي نفهمه، ولو جعلنا بعضه أعجميا وبعضه عربيا لقالوا: أقرآن أعجمى ورسول عربي، وهكذا المعاندون الجاحدون لا يقصدون من وراء جدالهم إلا التعنت والسفاهة"[1] والآية دليل قوي ومظهر إعجازي على ما سبق وقرره الله – عزوجل– في شأن كتابه في قوله تعالى: { إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢ }
فمقتضى عزة هذا الكتاب ألا يتطرق إليه باطل من أي وجه من الوجوه ، وألا يطعن فيه طاعن وأن يكون عربيا مبينا فصلت آياته ووضحت.

وقد جاءت (لو) لتدل على الفرض والتقدير يقول سيبويه: "أما " لو" فلما كان سيقع لوقوع غيره"[2]، وهذا معنى قول التفتازاني " فـ" لو " لتعليق حصول مضمون الجزاء لحصول مضمون الشرط فرضا في الماضي مع القطع بانتفاء الشرط فيلزم انتفاء الجزاء"[3] فالجواب (لقالوا لولا فصلت آياته) منتف لم يقع لامتناع وقوع الشرط (جعلناه أعجميا) والشرط يبين عمق عنادهم ، وقبح طباعهم، وأن تناولهم للقرآن الكريم لن يخلو من الطعون ، وجواب الشرط يبين مدى تماديهم في الضلال فعبروا عن رغبتهم في تفصيل الآيات بـ(لولا) التحضيضية وكأن هذا الأمر يعنيهم بل أظهر هذا الأسلوب أن قلوبهم جاهزة لتلقي الإيمان وأن الأمر أمر لسان ، وهذا منهم الزور والبهتان، وهذه الجملة (لولا فصلت آياته) لما جاءت في سياق نفي العجمة عن القرآن الكريم أكّدت على أن معنى تفصيل الكتاب هو

(١) التفسير الوسيط . د. محمد طنطاوي .ج١٢ ص ٣٥٩.

(٢) الكتاب. سيبويه جـ٤ صـ٢٢٤. تحقيق: عبد السلام محمد هارون . مكتبة الخانجي. القاهرة ط .الثالثة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

(٣) المطول. سعد الدين التفتازاني .صـ٣٣٣.

مجيء القرآن الكريم عربي واضح الدلالة بنفس أسس ومباديء وفنون هذه اللغة التي يتكلمونها فألفاظ القرآن وتراكيبه وأسلوبه ونظمه وتشبيهاته واستعاراته وكناياته وكل أحواله اللغوية من جنس ماهم فيه لفظا وتراكيب وأسلوبا ونظما وتشبيهات واستعارات وكنايات ومع ذلك هم عاجزون عن معارضته، وبذلك يظهر الإعجاز وطلاقة قدرة الله – عزوجل–.

ثم ازداد الكفار في أمر تمويه ضلالهم والتعمية عليه بهذا الاستفهام الإنكاري (**ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ**) الذي أكدوا به التحضيض المستفاد من دلالة (لولا)، "والمَعْنى أكلامٌ أعجميٌّ ورسولٌ أو مرسلٌ إليه عربيٌّ"(١) وقد بني أسلوب الاستفهام على الإيجاز بالحذف تصفية للأسلوب وتركيزا على ما أرادوا إنكاره ليكون ملء السمع والبصر، وليتخلص الأسلوب للطباق بين اللفظين: (أعجمي) و(عربي) "وقُرِىَء أعجميٌّ علَى الإخبارِ بأنَّ القرآنَ أعجميٌّ والمتكلمُ والمخاطَبُ عربيٌّ ويجوزُ أن يرادَ هَلاَّ فصّلتْ آياتُه فجعلَ بعضُها أعجمياً لإفهامِ العجمِ وبعضُها عربياً لإفهامِ العربِ"(٢) فهذه القراءة تخبر أنهم طلبوا الأمرين في القرآن الكريم ليكون إفهامه للعرب والعجم وهذا لون آخر من ألوان ضلالهم ، فقد أظهروا أنفسهم بهذه القراءة الخبرية في صورة الناصحين لكتاب الله – عزوجل – والله يعلم بحالهم وأن القرآن الكريم لوجاء كله أعجميا ما آمنوا ولو بعضه أعجمي وبعضه عربي ما آمنوا، أو لم يأتهم القرآن الكريم عربيا مبينا فصلت آياته وأحكمت من لدن حكيم خبير فقالوا كما حكت سورة فصلت (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)؟! ولذلك جاء أمر الله – عزوجل– لرسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم – بالرد الحاسم عليهم: {**قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ**}

(١) الكشاف ج٤ ص ١٩٧.

(٢) تفسير أبي السعود ج٨ ص ١٦..

وألاحظ أن الرد سلك مسلكا بعيدا عن عربية القرآن الكريم وعجمته فلم يقل مثلا: قل هو قرآن عربي مبين، لأن الذهن عندما يسمع هذا التكليف الإلهي التبليغي (قل) يعتقد أن ما بعدها سيكون حديثا عن لسان القرآن الكريم وبيان عربية هذا اللسان ودحض فريتهم ولكن النظم القرآني جاء بما هو أعمق من ذلك فحرر المسألة وبين القاعدة التي انطلق المشركون منها في كل افتراءاتهم فذكر أن الأمر أمر قلوب تستقبل وليس أمر لسان عربي أو أعجمي، فقلوب المسلمين تؤمن به فيكون لها هدى وشفاء وقلوب الكافرين جحدت فكان القرآن عليهم عمى فهذا العمى هو الذي قادهم فانطلقوا يفترون الكذب على الله ورسوله وكتابه، وهذا الأمر (قل) تكرر كثيرا في القرآن الكريم لأنه تعليم من الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم – يستدعي الانتباه والتركيز، لأنه لا يأتي أمر لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلا وكان المأمور به مهما يستحق هذه العناية، وهذا الأمر الإلهي شغل بأمرين:

الأول: هو بيان حال القرآن الكريم.

الثاني: استقبال الفريقين القرآن الكريم.

وقد أدت المقابلة دورا دلاليا في إظهار حال الفريقين بما يبين أن الأمر ليس أمر لسان عربي أو أعجمي وإنما هو أمر قلب شرح الله صدره للإسلام فكان القرآن الكريم له هدى وشفاء، وقلب آخر أغرق في الضلال وتكبّر وتجبّر فطبع الله على قلبه وختم ؛ فالقرآن الكريم عليهم عمى.

وهذه الآية صادقة على كل زمان ومكان فالمؤمن القرآن الكريم له هدى ونور ومن الضالين من يستمع إلى القرآن ويذكّر به فلا يزيده إلا رجسا على رجسه وضلالا على ضلاله قال تعالى: **{ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا }** (الإسراء: ٨٢)، وفي إسناد المصدرين: (هدى وشفاء) لضمير القرآن الكريم مجاز عقلي علاقته

المصدرية وذكر مولانا الطاهر أن (شفاء) في الأصل لزوال المرض وأنه مستعار هنا للبصارة بالحقائق وانكشاف الالتباس من النفس كما يزول المرض عند حصول الشفاء[١] وأرى أن الأسلوب على حقيقته ولا استعارة فيه لأن القرآن الكريم شفاء لما في الصدور وأن أمراض القلوب والنفوس أخطر من أمراض الأجساد ولا سبيل إلى الشفاء منها إلا به ، بل إن القرآن الكريم ببركة تلاوته يكون سببا فاعلا في شفاء أمراض الأبدان فلا حاجة إلى القول بالمجاز قال القشيري: "وهو – أي القرآن الكريم– شفاء للعلماء حيث استراحوا به عن كدّ الفكر وتحيّر الخواطر، وهو شفاء لضيق صدور المريدين لما فيه من التنعم بقراءته، والتلذّذ بالتفكّر فيه.وهو شفاء لقلوب المحبين من لواعج الاشتياق لما به من لطف المواجيد ، وهو شفاء لقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق، وآثار خطاب الرب العزيز"[٢]، وحق للقرآن الكريم ذلك فهو مصدر كل هدى وكل شفاء وذلك يدل على الاستجابة السريعة والإيجابية للمؤمنين، ولذلك كان التعبير عن إيمان هذه الفئة لافتا من خلال جملة الصلة (آمنوا) بصيغة الماضي والتي دلت على استقرار الإيمان وتمكنه في قلوبهم وحذف متعلق الفعل ليتسع إلى كل ما يتعلق به الإيمان، فهم آمنوا بالله ورسوله وبالقرآن وبكل ما جاء فهذا الحذف أنطق وأبين لحال الإيمان في قلوبهم، وعلى قدر دلالة هذه الجملة على ثبوت الإيمان للفئة المؤمنة جاءت الجملة المقابلة لتدل على نفي الإيمان عن الفئة الكافرة **(والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى)** و(لا) أدل على دوام النفي وطوله وأنها للطول والمد الذي في نفيها طال النفي بها واشتد[٣] فامتداد الصوت عند النفي ب(لا) يدل على

(١) ينظر : التحرير والتنوير ج ٢٤ ص ٣١٥.

(٢) لطائف الإشارات = تفسير القشيري . ج ٣ ص ٣٣٦. ت . أ/ إبراهيم البسيوني. الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر– الطبعة: الثالثة . بدون .

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم– ١٣٧/١ وما بعدها . دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. بدون.

تأكيد نفي الإيمان عنهم ، وحذف متعلق الفعل (يؤمنون) اتسع لكل كفر فهم كفروا بالله ورسوله والقرآن وكل ما جاء به النبي – صلى الله عليه وسلم – وجاء قوله (في آذانهم وقر) ليبين قوة إصرارهم على عدم الانتفاع بالقرآن الكريم وذلك من خلال تمكن الوقر من آذانهم والذي دل عليه حرف الوعاء (في) والتعبير بهذه الكلمة (وقر) وهي التي دلت على ضياع السمع بالكلية فالْوَقْرُ: الثِّقَلُ فِي الْأُذُنِ[1] وذلك من قبيل تصْوير المعقول بصورة المحسوس، لأن السماع حسيا لم يذهب بل شبه الصمم المعنوي الذي أدى بهم إلى عدم الاستجابة لدعوة النبي – صلى الله عليه وسلم– شبهه بالصمم الحسي المعبر عنه بالوقر الملحوظ فيه الاستقرار والتمكن، واستكمالا لبيان المعقول وإظهاره في صورة المحسوس جاء قوله: (وهو عليهم عمى) فشبه عمى بصيرتهم عن الحق بعمى البصر الحسي بجامع التخبط وعدم الاهتداء في كل، وتقديم الجار والمجرور (عليهم) أفاد القصر وهي دلالة مهمة فهؤلاء القوم هم المخصوصون بهذا الحكم وهم الذين كتبوه على أنفسهم كما حكت السورة في مطلعها: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ} ولما استغلقت مدارك إحساسهم بالوقر والعمى واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا جاء قوله تعالى: {أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ} وقد دلت الإشارة بالبعيد (أولئك) على بعدهم في الضلال ليتعانق البعد الحسي مع البعد المعنوي في الدلالة على بلوغهم الغاية في الشر والضلال والابتعاد عن رحمة الله –عز وجل– وجملة (أولئك ينادون من مكان بعيد) استعارة تمثيلية نقلت المعنى المجرد الذهني إلى معنى تصويري محسوس تراه العين فيتأكد ويرسخ قال الشريف الرضي: "وهذه استعارة. والمراد بها –والله أعلم– صفتهم بالتباعد عن طريق الرشد، والإعراض عن دعاء الحق كأنهم من شدة الذهاب بأسماعهم، والانصراف بقلوبهم ينادون من

(١) مقاييس اللغة . ج٦ ص ١٣٢.

مكان بعيد، فالنداء غير مسمع لهم، ولا واصل إليهم. ولو سمعوه لضلّ عنهم فهمه ، للصدّ المنفرج بينهم وبينه"[١] وهذه الاستعارة لايزال لها وقعها وحضورها في دنيا الناس حتى مع المسلمين فما معنى أن يذكّر أحدهم بالحلال والحرام ويصر على ذنبه؟! ألا يصدق عليه قوله تعالى: { **أولئك ينادون من مكان بعيد** } فالقرآن الكريم هو هو لكن القلب المستقبل له هو الذي يتغير.

وختاما فقد أكدت الآية على عربية القرآن الكريم، وأن الله اصطفى هذه اللغة لتدل على معانيه وأحكامه، لأن الله اصطفى النبي عربيا من أفصح العرب فكان لزاما أن يكون دليل صدق رسالته من جنس ما برعوا فيه؛ إذ كيف يتصور الأمر لو نزل القرآن بغير العربية، وقد استحقت العربية بما أودعه الله فيها هذا التشريف والتكريم؛ لأنها اللغة العبقرية الشاعرة الثرية التي تدل على أحسن المعاني وأدق الألفاظ فيجب أن تأخذ حقها نطقا ودرسا ومحافظة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) تلخيص البيان فى مجازات القرآن . الشريف الرضى .ج٢ ص ٢٩٦: دار الأضواء . بيروت. بدون .

الخاتمة

الحمد لله في الأولى والآخرة والصلاة والسلام على سيد الأنام محمد بن عبدالله.

وبعد:

فقد خلص البحث إلى ما يأتي :

١- جاء الوصف بـ(عربي) للقرآن الكريم ست مرات ، وللسان ثلاث مرات، وللحكم مرة واحدة، ونفي عنه العجمة في آية واحدة، وفي ذلك تشريف وتعظيم لهذا اللسان العربي ويدل على عظم هذه اللغة وكمالها وجمالها.

٢- الالتقاء ظاهر وواضح بين الدلالة المعجمية للفظ (عربي) ودلالة اللسان العربي، فهذا اللفظ (عرب) راجع إلى الإفصاح والإبانة والنشاط والحدة الذاتية والانفعال والانطلاق فأخذت اللغة العربية صفات من نسبت إليهم وهم العرب .

٣- جاء التأكيد على عربية القرآن الكريم مع أن ذلك لا خلاف فيه فألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه ناطقة بهذا؛ وذلك لفتا إلى هذه اللغة وأنها الطريق إلى فهم القرآن واستنباط أحكامه بما يستوجب المحافظة عليها فاللغة العربية بها حياة هذا الدين وبقدر العلم بها يكون العلم بأصول هذا الدين، ولا تدبر في القرآن الكريم إلا من خلال فهم أساليبها ومعطياتها والمناهج التي نشأت في رحابها وفي بيئتها الأصيلة وكل مناهج جلبت جلبا وفرضت فرضا لا تصلح مناهج للتدبر في كتاب الله.

٤- القرآن الكريم جاء بلسان العرب حتى يكون التحدي والإعجاز عن بينة والوصف (عربي) لافت إلى هذا المعنى؛ لأنه يستثير في الكافرين دواعي المعارضة ويدفعهم لها دفعا ويهيج نفوسهم لها فلامجال إذن للقول بالصرفة.

٥- كل الآيات تتناسب مع سورة الفاتحة (أم القرآن) وهذا شأن القرآن الكريم كله تجده ضاربا بسبب إلى فاتحة الكتاب.

٦- الاهتمام ببيان لحمة التناسب بين الآيات وسياق نزولها يعطي منهجا سليما للدعوة الإسلامية، ودروسا للدعاة في مختلف العصور والأمكنة، كما أن قراءة

الآيات في سياقها النزولي يثري المعنى القرآني وقد يكشف عن شيء في خصائص النظم لا يعرف إلا من خلال هذا الواقع النزولي فمعرفة ذلك طريق قوي في فهم معاني القرآن الكريم فالنظر للآيات من خلال قراءتها في هذا السياق يعد إضاءة إعجازية أخرى للقرآن الكريم المتعدد وجوه إعجازه.

٧- كل الآيات التي تحدثت عن عربية القرآن الكريم آيات مكية عدا آية الرعد وذلك مناسب للمرحلة الدعوية المكية فالحديث عن القرآن الكريم وإعجازه والتحدي به من أبرز مواضيع القرآن المكي، وكان الحديث عن القرآن هو شغل العرب الشاغل في مجالسهم وأنديتهم حتى وصفوا القرآن بما وصفوه به عجزا عن معارضته مع أنه نزل بلغتهم، في حين كان من المناسب مجيء التعبير عن القرآن الكريم ب(الجكم) في سورة الرعد مناسبة للفترة المدنية التي كثر فيها التشريعات والأحكام تهيئة لإقامة دولة المسلمين.

٨- كل السور التي جاء فيها هذا الوصف (عربي) بدئت بحروف مقطعة عدا سورتي النحل والزمر؛ وذلك إشارة إلى أن التحدي القائم إنما هو فيما يعرفه العرب ويبرعوا فيه، فالقرآن الكريم حروف من جنس حروفهم ومع ذلك لا يستطيعون الاقتراب من معارضتة ولو استعانوا بالجن.

٩- الآيات التي تحدثت عن إنزال القرآن الكريم عربيا جاءت بصيغة الإنزال (أنزلناه) ولم تأت صيغة التنزيل (نزّل) إلا في وآية الشعراء {وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢} وآية فصلت {حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢} وكل مناسب لسياقه فصيغة (أنزل) قاصدة لمعنى العلو والرفعة المناسبين في مواجهة غطرسة الكافرين، أما (التنزيل) فقاصدة إلى التأكيد على مصدرية التنزيل؛ ولذلك جاء معها (الرحمن الرحيم) و(رب العالمين) تنويها بعظمة الله المنزل.

١٠- لم يأت وصف (الكتاب) عند الحديث عن عربية القرآن إلا بـ(المبين) وكل ذلك تأكيدا على وضوح القرآن الكريم وإفصاحه التام عن معانيه وأحكامه وآدابه، وإيضاحه في الوقت ذاته لكل ما يهدي الإنسان في دنياه وأخراه فالقرآن الكريم يعد

من خلال هذا الوصف (المبين) كائن حي قوي قادر نافذ له تأثيره ولذلك ناسب هذا الوصف الحديث عن عربية القرآن الكريم، التي هي أوضح اللغات وأبينها.

١١- جاءت كلمة (قرآنا) ست مرات موصوفة ب(عربيا) مقصودة قصدا للدلالة على الظاهرة الصوتية الإعجازية للقرآن الكريم فهذا الكتاب عربي الحروف انتظمت أصواته بصفة إعجازية، ولعل التركيز في إظهار الصفة المسموعة للقرآن الكريم من خلال هذه الكلمة (قرآنا) يناسب حال العرب في الجاهلية؛ إذ كان أغلبهم أمي لايقرأ ولا يكتب وأغلب القصص التي تحدثت عن تفاعلهم مع القرآن الكريم إيجابا أو سلبا إنما كان تأثرا بسماع القرآن الكريم.

١٢-.الكلمات التي لم تكن عربية هي كلمات استخدمها العرب وتكلموا بها ودارت على ألسنتهم فجاء بها القرآن الكريم وكأن هذه الألفاظ الرومية أو الحبشية رسالة من الله – عزوجل – تشير إلى أن أمر الإعجاز راجع إليه – سبحانه – وأن اللغة مهما كانت فهي وعاء لما أراد الله إنزاله وأن الله لا يعجزه شيء فالمنزَل مهما كانت لغته فهو معجز إذا أراد الله له ذلك.

١٣- جاءت ثمرات مجيء القرآن الكريم عربيا متنوعة بين رجاء التعقل وحصول التقوى ، والعلم ، والتذكر والاعتبار ، وكلها تربي المسلم وتبنيه ولا سبيل إلى ذلك إلا بالقرآن الكريم المتدبر فيه بهذا اللسان العربي المبين.

١٤- لما كان من ثمرات إنزال القرآن الكريم عربيا العقل والعلم كان في ذلك دلالة على ضرورة تعريب العلوم فلا نهضة للأمة إلا إذا أبدع فيها العقل من خلال هذا اللسان العربي وكل الأمم الناشئة تسعى إلى تعريب علومها وتجعله هدفا قوميا لها، وأمتنا أولى الأمم بذلك لأن لغتها هي الطريق لدينها .

١٥- جاء المفعول في كل فواصل الآيات محذوفا؛ إذ كان القصد إلى إثبات معنى الفعل للفاعل من غير نظر إلى شيء وراء ذلك فتنزل القرآن الكريم عربيا فيه تربية للعقل وزرع للتقوى وغرس للعلم ، لينطلق هذا العقل العربي محصنا بالعلم والخوف

من الله – عزوجل – متدبرا في كون الله المقروء وكونه المنظور، وبدون هاتين الحصانتين لا مجال للتدبر الحق في القرآن الكريم.

١٦- جاء الحديث عن عربية القرآن الكريم في بعض الآيات ملازما للحديث عن تصريف الآيات وضرب الأمثال في إشارة إلى أن السبيل في فهم جمال هذا التصريف وضرب الأمثال إنما هو من خلال فهم أساليب العرب وطرائق بيانهم ومعرفة أمثالهم .

١٧- ندرة أساليب التأكيد حيث جاء التعبير عن تنزل القرآن الكريم عربيا من عند الله – عزوجل – في غالب الأمر خاليا من المؤكدات كالقسم وأساليب القصر ونحوهما، مع أن الخطاب لقوم أنكروا القرآن وأنكروا نزوله من عند الله ولكن لما كان ذلك هو الباطل بعينه لم يعتد به ولم ينظر إليه فنزل هذا الخبر منزلة الأخبار التي لا تنكر ولا تجحد لوضوح الأدلة وقوة البراهين القاطعة بصدق الخبر فقد غلب على الآيات النبرة الهادئة اللينة الهامسة التي تتسلل إلى مسارب النفس وحنايا القلب وهذا أدعى إلى التأثر والإذعان.

١٨- لم يذكر هذا اللفظ (اللغة) في القرآن الكريم فلم يذكرللدلالة عليها إلا لفظ (اللسان) حتى مع الحديث عن لغة الأنبياء والأقوام السابقين لم يعبر عن اللغة بهذا اللفظ وإنما كان التعبير بـ(اللسان) ولعل السر في تنحي هذا اللفظ عن ألفاظ القرآن الكريم راجع إلى اقترابه اللفظي والصوتي من الدلالة الأصلية لمادة (لغو) وارتباطها بما هو ساقط لا قيمة له.

١٩- التماسك الظاهر بين الحديث عن القرآن الكريم وتنزله قرآنا عربيا والحديث عن خلق السموات والأرض والشمس والقمر وسائر الكون وما ذاك إلا لينتقل المخاطب في رحلة الاستدلال والوصول إلى الله – عزوجل – من كونه المقروء (القرآن الكريم) إلى كونه المنظور.

والحمد لله رب العالمين .

ثبت المصادر والمراجع

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبوالسعود العمادي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت. بدون.

٢- أسرار ترتيب القرآن: السيوطي، تحقيق: د. عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، ط : الثانية.

٣- أشتات مجتمعات في اللغة والأدب: عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر، ط: ٢٠١٣ م.

٤- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى الرافعي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط الثامنة: ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٥م.

٥- الأمالي: ابن الشجري، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط الأولى: ١٤١٣هـ = ١٩٩١م.

٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل . البيضاوي . ت . د. محمد عبد الرحمن المرعشلي دار إحياء التراث العربي. بيروت ط .الأولى – ١٤١٨ هـ

٧- أوضح التفاسير . د. محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب. المطبعة المصرية ومكتبتها السادسة، ١٣٨٣ هـ – ١٩٦٤ م.

٨- الإيضاح: للقزويني، دار إحياء العلوم– بيروت، ط. الرابعة: ١٩٩٨م.

٩- بدائع الفوائد . ابن القيم . دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. بدون.

١٠- البرهان فى تناسب سور القرآن. الغرناطي. تحقيق: محمد شعباني . نشر . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . المغرب .١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م.

١١- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروز أبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٢هـ =١٩٩٢م.

١٢- البيان في عد آي القرآن: أبو عمرو الداني، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث– الكويت، ط. الأولى، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.

١٣- تاج العروس من جواهر القاموس: الزبيدي، دار الهداية، بدون.

١٤- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن . ابن أبي الإصبع العدواني، تحقيق: د. حفني محمد شرف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي . بدون .

١٥- التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان . ط .الأولى، ١٤٢٠هـ =٢٠٠٠م.

١٦- التفسير الحديث دروزة محمد عزت . دار إحياء الكتب العربية – القاهرة . ط. ١٣٨٣ هـ.

١٧- تفسير الشعراوي. مطابع أخبار اليوم ط ١٩٩٧ م .

١٨- تفسير القرآن العظيم . ابن كثير .ت . أ/ محمد حسين شمس الدين . دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت ط .الأولى – ١٤١٩ هـ

١٩- تفسير المراغي . شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر. ط . الأولى، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦م.

٢٠- تفسير المنار. الشيخ / محمد رشيد رضا . الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة ١٩٩٠ م .

٢١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم د/ محمد سيد طنطاوي. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة ط.الأولى ١٩٩٨م.

٢٢- تناسق الدرر فى تناسب السور للإمام السيوطى ، ت . د/ عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية . بيروت.

٢٣- جامع البيان في تأويل القرآن . الطبري . ت . الشيخ / أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة. ط الأولى، ١٤٢٠هـ =٢٠٠٠م.

٢٤- الجامع لأحكام القرآن . القرطبي . ت . أ/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش . دار الكتب المصرية – القاهرة . ط . الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م .

٢٥- الجنى الداني في حروف المعاني . المرادي . ت . د/ د فخر الدين قباوة و الأستاذ محمد نديم فاضل دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط . الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م

٢٦- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة. إسماعيل بن محمد الأصفهاني . دار الراية – السعودية . ط . الثانية، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.
٢٧- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية .أ. د / عبدالعظيم المطعني .مكتبة وهبة . ط . الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م .
٢٨- دراسات في علوم القرآن . د / محمد بكر إسماعيل . دار المنار. ط .الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٩.
٢٩- دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر . الشيخ / عبدالقاهر الجرجاني . ت . أ/ وَليد بِن أحمد بن صَالِح الحُسَيْن، و إياد عبد اللطيف القيسي . مجلة الحكمة. بريطانيا . ط الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م .
٣٠- دلائل الإعجاز . عبدالقاهر الجرجاني. ت. الشيخ / محمود شاكر. مطبعة المدني بالقاهرة . ط . الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
٣١- الرسالة . الشافعي .ت . الشيخ/ أحمد محمد شاكر .دار الكتب العلمية.بدون.
٣٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . شهاب الدين الألوسي . ت . الشيخ / علي عبد الباري عطية . دار الكتب العلمية – بيروت . ط .الأولى، ١٤١٥ هـ .
٣٣- زهرة التفاسير: للشيخ محمد أبوزهرة، دار الفكر العربي، بدون.
٣٤- سبل استنباط المعانى من القرآن والسنة أ٠د/ محمود توفيق سعد ٠ مكتبة وهبة . ط أولى بدون
٣٥- شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية: د. محمود توفيق محمد سعد. نشر المكتبة الشاملة على الحاسوب
٣٦- شرح التسهيل المسمى «تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد . محب الدين الحلبي المصري . ت . د. علي محمد فاخر وآخرون . دار السلام . القاهرة . ط . الأولى، ١٤٢٨ هـ.
٣٧- شرح تسهيل الفوائد. ابن مالك . ت. د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون . دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ط.: الأولى

.١٤١٠هـ /١٩٩٠م .

٣٨- صحيح مسلم .ت . أ / محمد فؤاد عبد الباقي ط .دار إحياء التراث العربي – بيروت . بدون .

٣٩- الصناعتين: أبوهلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العنصرية – بيروت .ط . ١٤١٩ هـ.

٤٠- العزف على أنوار الذكر د. محمود توفيق سعد . مكتبة وهبه، ط أولى ١٤٢٤هـ.

٤١- علامات في البلاغة والنقد . د. إبراهيم الهدهد . مكتبة وهبة .ط أول ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م

٤٢- الكتاب. سيبويه. تحقيق: عبد السلام محمد هارون . مكتبة الخانجي. القاهرة ط .الثالثة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

٤٣- الكشاف: الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت ط الثالثة: ١٤٠٧هـ.

٤٤- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية . أبوالبقاء العكبري أ. عدنان درويش و محمد المصري .مؤسسة الرسالة . بيروت. بدون.

٤٥- الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي، تحقيق: د. محمد حسن عواد. الناشر دار عمار. ١٤٠٥ هـ.

٤٦- لباب التأويل في معاني التنزيل..الخازن. ت . أ/ محمد علي شاهين. دار الكتب العلمية – بيروت ط. الأولى – ١٤١٥ هـ.

٤٧- لباب النقول في أسباب النزول. السيوطي . مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت . ط أولى . ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م .

٤٨- لطائف الإشارات = تفسير القشيري . ت . أ/ إبراهيم البسيوني. الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر. الطبعة: الثالثة . بدون.

٤٩- لسان العرب (عرب). دار صادر بيروت ط. الأولى .

٥٠- المجتمع المثالى كما تنظمه سورة النساء أ/ محمد محمد المدنى ص ٢ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . بدون.

٥١- مدارج السالكين بين منازك إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم . ت٠أ/ عماد عمار. دار الحديث القاهرة.بدون .
٥٢- مسند أحمد . ت. الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرين . مؤسسة الرسالة ط.الأولى. ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
٥٣- مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ. البقاعي. مكتبة المعارف – الرياض ط .الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م
٥٤- المطول . سعد الدين التفتازاني . ت . د/ عبدالحميد هنداوي . دار الكتب العلمية . بيروت .ط الثالثة . ٢٠١٣م
٥٥- مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة أ/ على النجدى ناصف ، دار المعارف. بدون .
٥٦- معاني القرآن . الأخفش . ت . د/ هدى محمود قراعة. . مكتبة الخانجي، القاهرة . ط . الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م .
٥٧- معترك الأقران في إعجاز القرآن. السيوطي . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ط الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
٥٨- المعجزة الكبرى القرآن: د. محمد أبوزهرة، دار الفكر العربي، بدون.
٥٩- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم. د. محمد حسن جبل . مكتبة الآداب – القاهرة ط . الأولى٢٠١٠ م.
٦٠- مغالطات لغوية الطريق الثالث إلى الفصحى الجديدة . د. عادل مصطفى . مؤسسة هنداوي .ط ٢٠١٧.
٦١- مفاتيح الغيب: الإمام الرازى، دار إحياء التراث العربي – بيروت ط . الثالثة: ١٤٢٠هـ.
٦٢- مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل . أبو الحسن الحرالي المراكشي. سلسلة دار التراث للنشر .ط أولى ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.
٦٣- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار بيروت، ط الأولى: ١٤١٢هـ.
٦٤- مقاييس اللغة . ابن فارس، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون .اتحاد الكتاب

العرب ط .١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

٦٥- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل . الغرناطي .ت . أ/ عبد الغني محمد علي الفاسي دار الكتب العلمية . بيروت . بدون .

٦٦- مناهل العرفان٠ الشيخ الزرقانى . مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة الثالثة .بدون.

٦٧- الموافقات . الشاطبي . دار ابن عفان ط . الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

٦٨- النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز ٠ دار طيبة للنشر والتوزيع ط أولى ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

٦٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور . البقاعي. دار الكتاب الإسلامي. القاهرة . بدون .

٧٠- النظم الفني في القرآن الكريم . الشيخ عبدالمتعال الصعيدي. مكتبة الآداب . القاهرة . بدون .

٧١- النكت في إعجاز القرآن . (ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) . الرماني . ت. د. محمد خلف الله. د. محمد زغلول سلام دار المعارف بمصر ط . الثالثة، ١٩٧٦م.

٧٢- وحي القلم . مصطفى صادق الرافعي . المكتبة العصرية . بيروت . بدون.

٧٣- وظيفة الصورة الفنية في القرآن: د. عبد السلام أحمد الراغب. دار فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب ط. الأولى.١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

الدوريات:

٧٤- مجلة المجلة . عدد٧ ذو الحجة ١٣٧٦هـ يوليه ١٩٥٧م .(نظرات فى فاتحة الكتاب الحكيم د/ محمد عبد الله دراز)

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص البحث :.....	٦٢٤
٢-	المقدمة :.....	٦٢٦
٣-	التمهيد :.....	٦٢٨
٤-	المبحث لأول وصف القرآن الكريم بكونه عربيا في ستة مواضع	٦٤٢
٥-	المبحث الثاني التعبير عن لغة القرآن الكريم باللسان، ووصفه بكونه عربيا في ثلاثة مواضع	٧٠٥
٦-	المبحث الثالث التعبير عن القرآن الكريم بالحكم، ووصفه بكونه عربيا في موضع واحد	٧٢٦
٧-	المبحث الرابع نفي العجمة عن القرآن الكريم في موضع واحد	٧٣٣
٨-	الخاتمة :.....	٧٤٠
٩-	ثبت المصادر والمراجع :.....	٧٤٤
١٠-	فهرست الموضوعات :.....	٧٥٠